مطبوعات كلية الآداب بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية

سلسلة محاضرات عامة

فى

أدب الأندلس وتاريخها

ألقاها عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨

الأستاذ

ليفى پروڤنسال

أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون

ومدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس

ترجمها إلى العربية

محمد عبد الهادى شعيره

أستاذ مساعد للتاريخ الإسلامى

بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

وراجعها

عبد الحميد العبادى بك

أستاذ التاريخ الإسلامى

وعميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٥١

مطبوعات كلية الآداب بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية

سلسلة محاضرات عامة

فى

أدب الأندلس وتاريخها

ألقاها عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨

الأستاذ

ليفى پروفنسال

أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون

ومدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس

ترجمها إلى العربية

محمد عبد الهادى شعيره

أستاذ مساعد للتاريخ الإسلامى

بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

وراجعها

عبد الحميد العبادى بك

أستاذ التاريخ الإسلامى

وعميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٥١

فهرست الموضوعات

تقـــــدمة

الأستاذ ليفى بروفنسال علم من أعلام السربون ، تخصص فى تاريخ المغرب والأندلس الإسلامى ، وتوفر عليه بالبحث والنشر والتأليف أعواما طوالا .

دعته جامعة فاروق الأول أستاذا زائرا لكلية الآداب فى عامين دراسيين متتابعين (١٩٤٧،١٩٤٨) فلبى الدعوة مشكورا ، وكان من ثمرات زيارتيه للإسكندرية ست محاضرات عامة هى المجموعة فى هذا الكتاب .

تناول الأستاذ الكلام فى المحاضرات الثلاث الأولى على الشعر العربى الأندلسى بفنونه الثلاثة : القصيد ، والموشح ، والزجل . ثم أفاض القول فى مدى تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوربى فى العصر الوسيط .

وتكلم فى المحاضرات الثلاث الباقية على غرناطة وقصر الحمراء ، وعلى مدن المغرب والأندلس ونظمها المدنية .

والمطلع على هذه المحاضرات يرى أن الأستاذ بروفنسال عالج فيها موضوعين من أهم الموضوعات التى تتصل بتاريخ المغرب والأندلس الإسلامى ، وأنه ضمنها خلاصة ماوصل إليه بحثه والبحث العلمى الحديث فى الموضوعين المذكورين .

ولقد قررت جامعة فاروق الأول بناء على اقتراح كلية الآداب ، نشر النص الفرنسى لهذه المحاضرات مع ترجمته العربية ، وعهدت إلى الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة أمر الترجمة ، فقام حضرته بالأمر خير قيام .

وكان لصاحب هذه الكلمة شرف قراءة الأصل الفرنسى، ومراجعة الترجمة العربية، ثم شرف هذا التقديم .

عبد الحميد العبادى

المحاضرة الأولى

الشعر العربى الكلاسيكى فى الأندلس

من نحو بضع عشرات من السنين أخذ الإقبال على دراسة أسبانيا الإسلامية — بعد أن بين المستشرق الهولندى المشهور ر. دوزى فضلها فى النصف الثانى من القرن الماضى — ينمو فى أوربا وفى الشرق العربى على السواء. ذلك أن ماضى أسبانيا الإسلامية تاريخيا كان أو حضاريا أو أدبيا قد أثار عددا وفيرا من الدراسات والجدل والأحكام العامة. وانضاف إلى ذلك الكشف عن مراجع جديدة غير متوقعة فى أسبانيا وفى مراكش بوجه خاص، فأتيح لنا بذلك أن نتناول بالتعديل فى كثير من النواحى معرفتنا بماضى الأندلس، بعد أن كانت هذه المعرفة إلى ذلك الوقت على شىء من الضيق. وكان من نتيجة ذلك أن حُلَّ كثير من المشكلات التى كنا نتناولها حتى اليوم فى خشية أو تحفظ وحذر على أقل تقدير. وكان من نتيجة ذلك أيضا أن بعض الافتراضات التاريخية، التى لم تكن ثبتت صحتها ثبوتا مطلقا كالقول بتأثير الثقافة العربية الأسبانية فى المسيحية الغربية فى العصور الوسطى، أصبحت فروضا مبنية منذ اليوم على قضايا أكثر ثباتا وبرئت مما كان يثقلها من الظن والشك. فإذا كان البحث عن العالم الأندلسى يخطو الآن نحو التقدم فى فرنسا خاصة وفى أسبانيا نفسها: فذلك لأنه أخذ يؤدى بأصحابه إلى نتائج عظيمة جزاء وفاقا على قدر جهودهم.

كذلك كان ماضى أسبانيا الإسلامية موضع اهتمام النخبة من أصحاب الثقافة دائما. ولهذا لا أرانى فى حاجة أمام جمهور مثقف كالجمهور الذى أتشرف اليوم بالتحدث إليه — إلى أن أبين الدواعى المختلفة التى جعلت دراسة الأندلس — وهى درة الإسلام العزيزة فى نظر المؤرخين والنقاد ولدى أصحاب الذوق من محبى الأدب، وهم كُثُر فى مصر خاصة — ذات سحر كثير نلحظه فيما أخرجت هذه الأرض الأسبانية من تراث عربى أخاذ. وأنا أستطيع أن أكرر ما قلته فى كثير من كتبى إن من وراء هذه الحمية الصادقة لماضى الأندلس البعيد شعورا عاطفيا ما، هو نوع من الأسى ظل باقيا على الرغم من تباعد الحقب، وضرب من الحسرة على كنز ضائع أو على « فردوس مفقود » بتعبير أفصح.

وأريد فى هذه السلسلة من المحاضرات عن أسبانيا الإسلامية التى كرست لها مدى سنين طويلة — كما قد تعلمون — صفوة جهودى الدراسية، أريد أن أتناول ناحية من أكثر نواحيها أخذا، وقد تكون أكثر نواحيها غموضا هى ناحية الشعر الأندلسى إذ لم يزل للأندلس فى كل عصر مكانة عالية فى تراث الأدب العربى الشعرى لم ينل منها فى شىء صمت شعرائها منذ أكثر من خمسة قرون . وهل يوجد فى العالم العربى من يجهل اليوم أسماء رجال الأندلس المشهورين مثل ابن زيدون أو المعتمد أو ابن حزم ؟ سأحاول اليوم إذاً أن أرسم لكم صورة من الشعر العربى الكلاسيكى فى أسبانيا الإسلامية وأن أبين لكم مراحل تطوره طورا بعد طور ولكننا سنرى كذلك أن الأندلس، وإن استحقت بوفرة إنتاجها الشعرى ذى النزعة الكلاسيكية المجددة أن تحتل مكانا ممتازا ، لم تكن مجددة حقا إلا بما أنشأت من شعر شعبى ومن أنواع شعرية مبتكرة . فإن الأندلس موطن الموشحات والأزجال ، وعنها أخذهما الشرق وسارع إلى اصطناعهما ، كأنما كان يتوق — توق الأندلس — إلى التحرر من قيود المعانى القديمة وقالب الشعر الكلاسيكى القديم وكان أصل من مثّل هذا الشعر الشعبى وأكثرهم عبقرية من غير شك ذلكم القرطبى ابن قزمان وهو شاعر قد يندر ذكره على ألسنة المثقفين ، ولكنه يستحق أن يوضع فى مصاف كبار الشعراء فى الأدب العربى وأرجو أن أثبت لكم ذلك بعد قليل فإذا فرغت من بيان المراحل الأساسية التى سلكها الإنتاج الشعرى الأندلسى مع شىء من الإيجاز حاولت بعد ذلك أن أعرض عليكم مشكلة كثر الجدل فيها وتبارت الأقلام فى أمرها فى السنين الأخيرة وهى القول بتأثير الشعر العربى الأسبانى فى شعر المداحين المعروفين بالتروبادور فى لانجدوك وپروفانس فى القرن الثانى عشر، والقول باتساع دائرة هذا التأثير وشموله الشعر الأوربى المسيحى المعروف إلى عصر النهضة ولا أستطيع أمام هذه المشكلة التى اصطدم حولها المؤيدون والمعارضون إلا أن أصطنع ما يجب من الحذر والحيطة ، شأن من يسلك طريقاً محفوفة بالأشواك

*
* *

ليس بين أيدينا اليوم مجموعة تامة من كل ما أخرج الأدب القديم فى أسبانيا الإسلامية منذ أقدم عصوره، أعنى من القرن الثامن الميلادى، إلى آخر القرن الخامس عشر، وهو الوقت الذى استولى فيه الملكان الكاثوليكيان على غرناطة وردا إلى المسيحية آخر شبر إسلامى من شبه الجزيرة الإيبيرية . ولا يزال إنشاء هذه المجموعة الكاملة أمرا بعيد المنال .

ولاتزال مجموعات شعرية كثيرة العدد فى حاجة إلى النشر ، ولا تزال مجموعات لاتقل عن الأولى عددا فى حاجة إلى الكشف أو الانتزاع من عالم النسيان والإهمال الذى طغى عليها منذ قرون . ثم إن طائفة كبيرة من الشعر العربى الأندلسى لم تصل إلينا إلا عن طريق الاقتباسات الواردة فى كتب المختارات المؤلفة فى أسبانيا نفسها : مثل الذخيرة لابن بسام ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، والمغرب لابن سعيد . أو فى ذلكم الكتاب النفيس «نفح الطيب» لصاحبه المقرى ، وهو كتاب متأخر عن الكتب الأولى . ولدينا كذلك عدد وفير من الأبيات متضمن فيما بين أيدينا من كتب التاريخ والسير . أما الدواوين الكاملة وأعنى المجموعات الشعرية التى رتبها أصحابها ونظموها أو رتبها شراحهم ، فإن عددها قليل ، ولا يزال كثير منها فى حاجة إلى النشر .

وليس لدينا من الدراسات المتصلة بهذا الشعر فى مجموعه دراسة وافية غير أن شعر القرن الحادى عشر فى أسبانيا وهو العصر المعروف بعصر ملوك الطوائف قد درسه وتعمقه — منذ بضع سنين — عالم فرنسى واسع الاطلاع هو م . هـ . پيريس . ولكن هذه الدراسة ، على ما امتازت به من الإغراق فى التحقيق ومن الجفاف معا ، لم ترسم لنا إلا قليلا من الافكار الرئيسية العامة . وقد حلل فيها المؤلف تحليلا مستفيضا ما ألهم الشعر الأندلسى من المعانى . وتوخى فى ذلك جمع كل شاردة وواردة والإحاطة بكل شىء ، وهو هدف يضر بالنظام العام للكتب بطبيعة الحال . وفى أسبانيا اليوم وعلى رأس علمائها المستشرقين عالم خلف عالمها المتمكن ميجل آسن بلاسيوس ، هو زميلى وصديقى اميليو جرسيا جوميز ، الذى هو اليوم فيما أرى أعمق المستشرقين الأوربيين علما بالشعر الكلاسيكى الأندلسى إن لم يكن بالشعر العربى عامة . وهو لا يحيط به فقط ولكنه يتذوقه إلى أبعد حد ويتقن تحليله فى تعمق نفاذ وبراعة فائقة من كل وجه ، لما له من مران جاءه من الإلمام التام بشعر بلاده فى كل عصورها ابتداء من مجموعات أغانى الحدود المعروفة باسم رومانسيرو ومن قصيدة السيد إلى جنجورا ، إلى آثار المدرسة الأسبانية المجددة . ولعل الأستاذ جرسيا جوميز هو الجدير فيما نأمل بأن يخرج لنا فى هذه السنين صورة نهائية للشعر العربى الأندلسى . وهو حرى بأن يستطيع التمييز بين أثر الشرق فى هذا الشعر وأثر الابتكار فيه . وقد أثبت جرسيا جوميز قدرته وذوقه وعبقريته فى عدة دراسات ممهدة لدراسته المنتظرة : آخرها اسمه «الإحساس بالجمال الأدبى فى الشعر العربى» . وهو مقدمة تبشر بإخراج كتاب فى علم الجمال عند المسلمين . فلا تدهشوا إذا رأيتمونى فى أثناء هذا الحديث الأول أستلهم فى كثير من

المواضع صفحات مفدمة قدم بها جوميز الكتاب مختارات صغير نال فى أسبانيا أعظم إقبال وقد ترجم المؤلف فيه قصائد عربية أندلسية إلى لغة قشتالة .

ولست أظننى فى حاجة إلى أن أذكر الكم كل تفاصيل المراحل التى سلكها تطور الشعر العربى فى القرون الأولى للهجرة . أما أقدم مرحلة فهى المرحلة الجاهلية أو العصر السابق على الإسلام ، فيه صيغت قصائد لم يعدلها بعد شىء فى إحكامها الذى أوثر أن أصفه بالكمال الشكلى صياغة لا غبار عليها . فقد كانت جزيرة العرب بفيافيها الشاسعة القاحلة ، وكثبانها ، وهضابها الحصبائية ، ورياحها السافية ، وارتحال البدوى ارتحالا متصلا ، ومخاطراته ، وحياة التقشف التى تفرضها عليه ظروف حياته العادية : من قيام على قطعان الإبل وتدع المراعى ومواضع الماء ، ومايضاد ذلك التقشف من جنان الواحات وألفاف النخيل ومنابع الماء الجارى : كان ذلك كله « عالما خارقا من الشعر الخالص » ، وهو عالم أصدق شاعرية حين يلتهب إلهام الشاعر باحساس آخر هو حب المرأة . هذا العالم الشعرى الذى نسجته حياة الصحراء وغذاه الحب الرقيق الذى سمت به الطبيعة المحيطة ودوام الارتحال عن الديار نوعا من السمو : هذا العالم هو الذى صورته لنا القصائد المعلقات الجاهلية . وهى آثار أعلام ذات ثروة لغوية ضخمة ، رائعة فى قوة إلهامها فى كثير من الأحيان . ثم جاء الإسلام فلم يغير من هذا العالم أول الأمر شيئا ، حتى بعد أن انتقل مركز السلطان إلى دمشق بقيام الأمويين . فقد كانت العاصمة الجديدة على قيد خطوات من الصحراء ، وظل العرب وأمراء الأمويين أنفسهم يستطيبون منازل الصحراء . وأنتم تعلمون ما كان بعد : من قيام العباسيين وتنظيم الامبراطورية وافتتاح الأبواب للمؤثرات الخارجية وخاصة لتأثير الحضارة الفارسية . فأخذ الشعر التقليدى ، بعد أن اطرد ازدهاره فى مواطنه الأولى ، يفقد شيئا فشيئا عبقريته الوصفية وجماله المطبوع وأهميته الاجتماعية : ولم يعد الشاعر الممثل العظيم لقبيلته وعشيرته ، ولا الحكم الملهم الذى يدعو إخوانه إلى السلاح ويحفز إلى أخذ الثأر ويرعد فيصب اللعنة ويرد على الإهانة والهجاء . فإذا تغنى بالمرأة لم يجد البدوية الطليقة ذات الكرامة التى تعودت حياة الخيام ، وارتضت حظها من نظام الصحراء الخشن ، فهى آنا تقفز من هودجها حين تحط الرحال لتصف أثافى النار ، وآنا تخرج لتحتطب ، وإنما وجد الشاعر منذ هذا العصر جمالا مستورا مودعا فى ظلال منازل خاصة لا سبيل إليها . وتغيرت الأحوال . وبقى التقليد الشعرى على حاله . وصار الشاعر الذى تحضر وعاش فى مدينة كثر أهلها وتحضرت مثل بغداد : يذكر آثار الديار التى ارتحل عنها أصحابها ،

ويصور الحياة البدوية فى لغة حافلة بألفاظ البادية ، مع أنها أشياء لا تتصل أى اتصال بالحقائق الملموسة . ويتغنى الشاعر بالحب البدوى ويذكر تصاريفه وهو يحيا فى جماعة استقرت وألفت الترف شيئا فشيئا وانصقلت بدعة أهل المدن .

ويتبع ذلك ما نسميه عادة بالخلاف بين القدماء والمحدثين : أعنى الخروج على النزعة المحافظة الضيقة التى تتمسك بمبادئ شعرية تقليدية ولاتتخذ مصادر إلهام مبتكرة ، زاهدةً فيما خلقت بيئة الحياة الجديدة من مصادر للألهام جديدة . وكان طبيعيا ألا تسير النزعة الجديدة إلى غايتها : فإن قواعد العروض القديمة بقيت قائمة دون تغيير ، وظلت أقسام القصيدة التقليدية كما كانت ؛ ولكن المعانى تجددت شيئا فشيئا وتطورت ، وصار الشعر وسيلة للتعبير عن معان شاملة . ولكنه اصطنع التعبيرات النادرة ، الجناس بين الألفاظ وهذه الكثرة المعقدة من محسنات البديع الشعرى .

كان ذلك فى عصر أمثال أبى نواس ، وابن المعتز ، وأبى العتاهية ، وبشار بن برد . وتطورت كذلك المعانى فى الوصف : فحلت محل رمال الصحراء المحترقة ثلوج القمم الجبلية أحيانا ، ومحل حصباء الحرات ماء المصانع الصافى . ونشأ كذلك من ناحية أخرى شعر خمرى . ومع ذلك فإن الذين كانوا يناصرون الشعر القديم فى ثوبه الجديد ظلوا شغوفين بتراث الجاهلية يعدونه كنزا لغويا واجتماعيا ، فيحفظونه عن ظهر قلب ، ويستشهدون به فى كل المناسبات ، ولا ينفكون يشرحونه ويعلقون عليه . ثم ظهرت فى القرن العاشر بشائر مرحلة جديدة من تطور الشعر : إذ ظهر شعر شعراء كبار مثل البحترى ، وأبى تمام ، وأبى العلاء المعرى . فابتدأ بهم عصر كلاسيكى ثان فى تاريخ الشعر العربى وكان أعظم مجدد فى هذه المرحلة أبو الطيب المتنبى .

أما أسبانيا البعيدة فلم تتجه قط فى أول الأمر إلى الانفراد بدور خاص بها فى الشعر . ذلك أنه كان من خصائص الحضارة الأندلسية التى لازمتها إلى منتصف القرن التاسع الميلادى أن تتمسك تمسكا شديدا « بالتقاليد الشامية » . ولم يزدد هذا التمسك إلا قوة حين ولى أمر المغرب الأندلسى الإسلامى الأمير الأموى عبد الرحمن الداخل . ومن الطبيعى ألا ندهش إذ نرى فى أرض الأندلس من أول الأمر أرستقراطية عربية معتزة بأصلها مكبرة له ، تحافظ على مثلها الشرقية وتنقل إلى المغرب كل شىء من عاداتها القديمة حتى عصبيتها القبلية ، فيصبح الشعر فيها صورة دقيقة من الفن الشعرى العربى فى القرنين الأولين للإسلام . وهكذا نشأ شعر غنائى أسبانى عربى فيه كل

خصائص المشارقة وغير متجه إلى الانفراد بأى ابتكار . فكان إحساس الأندلس بتبعيتها للشرق واعتمادها عليه إحساسا مسلما به ولا جدال فيه . وشمل هذا الإحساس الشعراء وفرض نفسه على إلهامهم . فبقيت المعانى البدوية سائدة فى أسبانيا أيضا زمنا طويلا ، دون أن يدرك الذين يصطنعون هذه المعانى من الشعراء اختلاف الموطن وقيامهم على جزء من القارة الأوربية قد يشبه أى شىء إلا جزيرة العرب .

ومع ذلك فإنا لا نلم إلا إلماما ناقصا ببشائر الإنتاج الشعرى فى أسبانيا الإسلامية . ولكننا نفترض أن شعراً نشأ فى بلاط الأمراء الأمويين ، وأنه كان شعر بلاط للمديح منه النصيب الأكبر . ولقد كان جميع الأمراء الأمويين تقريبا يقرضون الشعر فى المناسبات . وقد روى للداخل شعر قاله ، حين رأى عرضا وعلى غير انتظار نخلة فى ريف قرطبة فحن إلى موطنه وأحس أن تلك النخلة تحس مثله الغربة[1] . وكذلك قال حفيده الحكم الأول شعرا ضمنه محاسن إمارته ووصيته السياسية . فلما قام عبد الرحمن الأوسط وفتح أبواب مملكته على مصاريعها دخلت التقاليد البغدادية وأهملت التقاليد الشامية بعض الشىء ، وكان للشعر من ذلك كسب جديد . وأصبح البلاط مقصد الشعراء وأصبحوا يجدون فيه ما يأملون من ترحيب .

فكان تأثير الشرق فى أسبانيا حينئذ أشد ما يكون حيوية وخصبا معا . ولعل المجلد الثانى من تاريخ ابن حيان المعروف بالمقتبس[2] — وهو الذى عثرت عليه منذ عهد قريب — أكبر دليل على هذا التأثير ، فإن فيه مختارات طويلة من مجموعات شعرية ظلت مجهولة للآن ، مثل شعر عبد الله بن الشمر ، وعباس بن فرناس ، وعبد الله ابن بكر الملقب بالندل ، وخاصة شعر يحيى بن الحكم البكرى الذى اشتهر باسم الغزال ، والذى بعثه أميره فى سنة ٨٤٠ رسولا إلى بلاد بيزنطة . وفى نفس ذلك العصر الذى هدأت فيه الفتن العصبية التقليدية أو كادت ، وأحس الناس فيه شخصيتهم الأندلسية ، وفرقت العصبية الجنسية فى كثير من الأحيان بين الأندلسيين العرب وبين من أسلم من أهل البلاد ، فى ذلك العصر أقبل الناس إقبالا صادقا على نوع من الشعر جديد : هو الهجاء وما يستلزمه الهجاء من مدح الشاعر نفسه وذوى قرابته : أعنى المفاخرة . وسنرى حين ننشر فى القريب ما بقى لنا من أشعار الغزال كيف كان هذا

(١) انظر الكامل لابن الأثير ط . ليدن ١٨٧١ ج ٦ ص ٧٧

(٢) قد شرعت كلية الآداب بجامعة فاروق الأول فى طبعه .

الشاعر ذا موهبة صادقة وسنقدر أخيلته اللاذعة ، وكيف كان معاصروه يصورونه مرهوب الجانب لخوفهم من هجائه المقذع وسنرى كذلك توخيه قرض الشعر بلغة واضحة خالية من المحسنات الخطابية ليكون كلامه مفهوما لدى العامة

وكان عصر عبد الرحمن الثانى نفسه العصر الذى اتصلت فيه أسبانيا الأموية بالشرق العباسى لأول مرة اتصالا مباشرا وذلك أن هذا الأمير لم يكد يلى الأمر حتى بعث إلى الشرق جماعة من علماء عاصمته ليجلبوا له كتبا تتصل بما اشتد اليه ميله من العلم كالطب والفلسفة والعلوم الروحانية والتنجيم وتفسير الأحلام وقد ظل إلى آخر حياته يشجع المتصلين به على دراسة الفقه على المذهب المالكى وعلى دراسة الشعر العربى القديم وكان من المقربين إليه إبراهيم بن سليمان الشامى الذى نشأ فى المشرق وعرف أبانواس وأبا العتاهية عن قرب ، ثم قدم الأندلس حيث اشتهر بشعره الدينى الصوفى ، وهو الذى قال بيتا سائرا مشهورا قارن فيه الحياة الدنيا بنسيج العنكبوت

ثم إن عصر عبد الرحمن الثانى هو كذلك العصر الذى قدم فيه إلى قرطبة واستقر بها الموسيقى المغنى العراقى المشهور على بن نافع الذى عرف بلقبه زرياب وكان أثره فى أهل الثقافة وأوساط الأندلس الاجتماعية عميقا ولم يلبث أن أصبح ذا دور خاص فى تعريف الأرستقراطية القرطبية بآداب الملبس والحركة والزى وطرائق الحياة وأنواع الكلام نفسها ، لأن هذه الأرستقراطية وجماعتها كانت تتطلب الجديد وتتهيأ لقبول كل ما فى الحضارة البغدادية من ترف وانضاف إلى زرياب الذى كان مثلا للناس فى زيه ولياقته قيان مدنيات استقدمهن أمير قرطبة إلى بلاطه حينئذ ، فخلقن فى عاصمة أسبانيا الإسلامية جوا مهذبا ، إن صح هذا التعبير ، مطبوعا بطابع الشرق فكان جوا لم يلبث الشعر أن استمد منه بالضرورة بعض القوة فى إلهامه . ولم تمض على ذلك إلا عشر سنين حتى اخترع « ضرير قبرة » مقدم بن معافى ، الشعر الموشح فى أسبانيا نفسها .

أما القرن العاشر وهو عصر الخلافة الأموية الأندلسية وأمجد عصر فى تاريخ أسبانيا الإسلامية على الأطلاق فقد جاء عقب انصهار المؤثرات الشرقية فى بوتقة أندلسية محضة ، فسار الشعر فيه بخطى أشد ثباتا ، وسلك طرقا جديدة مع الاحتفاظ بالإكبار لغرر الآثار الأدبية الشرقية الجاهلية والإسلامية ويقول الاستاذ جرسيا جوميز : إن هذا العصر هو الذى التقى فيه تراث الفرس بتراث بيزنطة واتحدا مع الأصل الأندلسي

القديم . وقد تم تفاعل هذه العوامل فى أسبانيا تحت رعاية عنصر محايد جليل المنزلة : هو الأسرة الأموية. فإن هذه الأسرة رغم عروبتها البحت وغربتها فى هذه البلاد كانت عدوا لدودا للعباسيين فى الشرق . فكانت قرطبة يتكلم فيها بالعربية والرومية ويسمع فيها تجاوب أجراس الكنائس وأذان المؤذنين ، وكان بعض الشعراء كذلك يقصدون إلى كنائس المستعربة الصغيرة ويحيون ما اعتاده شعراء البادية فى القديم من قصدهم الأديرة المنعزلة فى الصحراء لشرب النبيذ . والتقت جميع الأجناس وجميع الديانات ، فخلق ذلك جوا خلقيا أدبيا شفافابديعا . وكانت هذه الحضارة الأندلسية نفس حضارة بغداد الممثلة فى ألف ليلة وليلة ، فإن خلت مما يقوم دائما فى حضارة الشرق من غرابة غامضة ، فقد اصطبغت بالصبغة الغربية بحكم عيشها فى هواء سييرا مورينا الريفى الرقيق . وكانت قرطبة قادرة على هضم كل جديد وتمثيله وإشاعة الصفاء فيه . فإذا كانت ألوية بغداد وشارة حدادها سودا فهى فى الأندلس بيض . وبينما كانت الممالك المسيحية الشمالية تحيا حياة فقيرة ريفية بحتا ، كان أمراء قرطبة ملوك أسبانيا غير منازعين مثل عبد الرحمن والحكم والمنصور. وفى أروقة الجامع الكبير وظلاله ، وفى خرائب مدينة الزهراء الجليلة التى أصبحت اليوم مرعى لثيران المصارعة « القوية » ، وفيما بقى من الثياب وصناديق العاج المحفوظة فى الكنائس والمتاحف : شاهدٌ لا يزال يتحدث بالمجد الغابر الذى لا يمحى . وكذلك يتحدث الشعر بمجد هذا العصر.

ولسنا بقادرين فيما أرى على تصوير عصر الخلافة المزدهر تصويرا شاملا لخصائصه. فهو ذروة الحضارة الأندلسية العربية . ولا تزال شواهده بين أيدينا قادرة على إحياء صورة الماضى . قد أكون متحيزا لأسبانيا الإسلامية لانصراف جهدى اليومى لدراستها منذ عهد بعيد . ولكنى أستطيع أن أقول إن تاريخ العالم الإسلامى لم ير أياما أعظم انسجاما . فهى « أيام العروس[1] » كما يقول مؤرخو العرب . فكانت البلاد كلها تحس فى آخر القرن العاشر نوعا من الإحساس أنها دون سائر العالم ، تمثل ما يجعل الحياة حقا جديرة بأن تحيا . هو عصر رائع جاوز صيت الأندلس فيه وقوة جاذبيتها حدود المغرب بأمد بعيد ، فقصدها شعراء مشهورون مثل أبى على القالى

(١) يشبه مؤرخو الأندلس من العرب السنين السبع التى حكمها عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر بسابع العروس لحسنها وبهائها (المقرى جـ ١ ص ١٩٨)

ومثل صاعد البغدادى، وكلهم لم يترددوا فى التغرب ابتغاء الاستقرار فى الأندلس دون أن يساورهم ميل إلى الأوبة . فكانت الأندلس فى نظارهم بحق الأرض المباركة من بين ممالك الإسلام ، وهو عصر رائع حقا بمثل الحكم الثانى أثناء ولايته العهد وانصرافه فى أوقات فراغه ، بعد أن نضجت سنه ، إلى أن يكون بناء يرسم لجامع قرطبة الكبير زينته الباهرة ، أو إلى أن يكون محبا للكتب عارفا بها فيتخذ جماعة كبيرة من النساخ رجالا ونساء ، وينفق عليهم ؛ ويجعل من مكتبة الخلافة كنزاً لا يعدله كنز ولا يقدر بمال .

ولم يكن الشعراء قلة فى عصور الخلفاء الخصبة ومن خلفهم من الأوصياء من بنى عامر المستبدين المستنيرين ، فقد علت إلى القمة أسماء شعراء كان منهم من اتبع الطريقة الكلاسيكية البحت وذاعت شهرته فى الشرق والغرب على السواء مثل ابن عبد ربه مؤلف كتاب العقد الفريد المشهور — ومات عام ٩٣٩ — وأثره شاهد على ما كان من حرص الأمويين على الاحتفاظ بالتراث العربى الأول ، ومثل ابن هانئ فى البيرة وكان كثير الأسفار ، ومثل ابن زمانين ، ومثل كثير من الأمراء ممن أوتوا شيئا من الخيال مثل مروان الطليق الذى سجن لأنه أعان على قتل أبيه ، فقرض فى سجنه من الشعر ما حفظه السلف .

كذلك اشتهر نوج من الشعراء حتى فى عصر الاضطراب الذى صحب تقوض الخلافة فى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر : مثل الرمادى ، وابن دراج القسطلى ، وهو شاعر معقد يصطنع المحسنات التى اشتهر بها بعد جنجورا فى أسبانيا ، ومثل ابن برد ومثل أمير كان مكفوفا عن أمور السياسة : هو عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر بالله وقد قال ستة أبيات رائعة رواها السلف فخلد بها :

طال عمر الليل عندى مذ تولعت بصدى
ياغزالا نقض العهد ولم يوف بوعدى
أنسيت العهد إذ بتنا على مفرش ورد
واجتمعنا فى وشاح وانتظمنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكى . ذهبا فى لازورد[1]
وتعانقنا كغصنين وقدانا كقد

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ط . القاهرة ١٣٠٣ هـ . جـ ١ ص ٢٠٦ وقد حذف من الستة بيتا ، والأبيات كاملة فى ابن بسام ، الذخيرة جـ ١ ص ٤٢ ، ط ١٩٣٩)

في ذلك العصر أيضا ذاع نوع من الشعر تصاغ فيه مقطوعات قصار تسمى «النّوريات» صياغة بالغة الإتقان ، فيخرج الشاعر فيها من كل نورة جميلة عاطرة تخلق النشوة ويسميها بأسماء الازهار ، مثل القرنفل ، والريحان ، والبهار ، والورد ، والبنفسج والنرجس ، وعلى رأس هؤلاء سعيد البغدادى . وقد كان فى حدائق أسبانيا ، كبلاد أوروبا ، أكثر أنواع الأزهار وأروعها ، وقد اهتز الشعر من كثرة أزهارها ووفرة أنواعها ونشوة عطورها .

فى نفس ذلك العصر أيضا كان الشعر يتناول الحب ، فيصوغ ما يلازمه من أمل وتخوف صياغة لعلها كانت أتم ما عرف في الإسلام ، وأسمى ما كان من ذلك . وقد برز فى هذا الشعر اسم أسبانى عظيم جدير بأكبر منزلة ، هو مفخرة لأسبانيا ومفخرة للإسلام أيضا ، لأن المشرق والمغرب يتنازعان فضله : هو أبو محمد بن حزم ، ذلك الرجل البارع والمفكر الذى ترك لنا آثارا كثيرة العدد شديدة التنوع . ومن آثاره كتاب صغير الحجم عظيم القدر عن الحب والمحبين ، هو « طوق الحمامة » ؛ ولعله أشد كتب هذا العصر الكلاسيكى الثانى قربا من العقلية الأوربية . وهو تحليل نفسى نفاذ مزدان بالأمثلة . وقد ساقه المؤلف ليشرح ما يروى من شعره نفسه ، وهو شعر ألفه فى شبابه ، وصاغ فيه جميع معانى الحب ، فعبر عن العاطفة المشتعلة فى حالتى الرى والظمأ ، وعبر عن الآمال إذا تحققت ، وإذا أخفقت ، وعن الاضطراب الذى تسوقه آلاف الظروف فتعكر صفو المحبين وتفرق نجواهم . وسأعود — عند الكلام على ما نسميه حب المروءة ، وهى مسألة كثر الجدل فيها — إلى ذكر المكانة التى يجب أن يخص بها هذا الكتاب الممتع : كتاب « طوق الحمامة » . ولكن اسمحوا لى منذ الآن أن أقرأ لكم من هذا الكتاب الدقيق المعنى صفحة تتجلى فيها خصائصه أوضح جلاء . فسوف لا تجدون عناء فى الوقوف ، من بعض عباراته وبعض شعره المرتجل ، على نزوعه إلى المحسنات البديعية بالأسلوب الذى عرف به جنجورا فيما بعد :

« ومن وجوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيع ، ومرتبة سرية ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ؛ بل هو الحياة المجددة ، والعيش السنى ، والسرور الدائم ، ورحمة الله عظيمة . ولولا أن الدنيا دار ممر ، ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة فيه ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى . ولقد جربت اللذات على تصرفها

وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا الترّوح على المال ، من الموقع فى النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الهوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غب القطر ، ولا إشراق الأزاهيز بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقن بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه وحمدت غرائزه وتقابلت فى الحسن أوصافه . وإنه لمعجز ألسنة البلغاء ومقصر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب وتغرب الأفهام وفى ذلك أقول :

وسائلى عما لى من العمر　　وقد رأى الشيب فى الفودين والعذر
أجبته ساعة لاشئ أحسبه　　عمرا سواها بحكم العقل والنظر
فقال لى كيف ذا بينه لى فلقد　　أخبرتنى أشنع الأنباء والخبر
فقلت إن التى قلبى بها علق　　قبلتها قبلة يوما على خطـــر
فما أعد ولو طالت سنىّ سوى　　تلك السويعة بالتحقيق من عمرى

ومن لذيذ معانى الوصل المواعيد ، وإن للوعد المنتظر مكانا لطيفا من شغاف القلب ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه ، وفيه أقول قطعة منها :

أسامر البدر لما أبطأت وأرى　　فى نوره من سنا إشراقها عرضا
فبت مشترطا والود مختلطا　　والوصل منبسطا والهجر منقبضا

والثانى : انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه ، وإن لمبادئ الوصل وأوائل الإسعاف لتولجا على الفؤاد ليس لشئ من الأشياء . وإنى لأعرف من كان ممتحنا بهوى فى بعض المنازل المصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زمانا طويلا ليلا متى أحب ، ونهارا إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة ، ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة . ولعهدى به قد كاد أن يختلط عقله فرحا ، وما كاد يتلاحق كلامه سرورا فقلت فى ذلك :

برغبة لو إلى ربى دعوت بها　　لكان ذنبى عند الله مغفورا

ولو دعوت بها أسد الفلا لغدا إضرارها عن جميع الناس مقصورا
فجاد باللثم لى من بعد منعته فاهتاج من لوعتى ما كان معمورا
كشارب الماء كى يطفى الغليل به فغص فانصاع فى الأجداث مقبورا

وقلت :

جرى الحب منى مجرى النفس وأعطيت عينى عنان الفرس
ولى سيد لم يزل نافـرا وربتما جاد لى فى الخلس
فقبلتـــه طالبـــا راحـــة فزاد البلاء بقلبى اليبس
وكان فؤادى كنبت هشيم يبيس ، رمى فيـــه رام قبس

ومنها :

وياجوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس (١)

وإليكم بعض أشعار قوية الدلالة مختارة من طوق الحمامة صغتها شعرا فرنسيا لأمعن فى نقل أسلوبها البديعى ولأحسن نقل الصور التى أوحتها المحبوبة إلى الشاعر . (أنظر الأصل الفرنسى : لأننا نروى هنا النص العربى)

قال موجها الخطاب إليها :

فليس لعينى عند غيرك موقف كأنك ما يحكون من حجر البهت
أصرفها حيث انصرفت وكيف ما تقلبت كالمنعوت فى النحو والنعت

وهو يقول أيضا :

وإذا قمت عنك لم أمش إلا مشى عان يقاد نحو الفناء
فى مجيئى إليك أحتث كالبد ر إذا كان قاطعا للسماء
وقيامى إن قمت كالأنجم العا لية الثابتات فى الإبطاء

(١) كتاب " طوق الحمامة " طبعة ليدن سنة ١٩١٤ ص ٥٥ — ٥٧

ولكن ابن حزم يجيد التصوير فى باب تخيل الحب ،ومثل ذلك حين يقول :

ياليت شعرى من كانت وكيف سرت   أطلعة الشمس كانت أم هى القمر
أظنة العقل أبداها تدبره   أو صورة الروح أبدتها لى الفكر
أو صورة مثلت فى النفس من أملى   فقد تخيل فى إدراكها البصر
أو لم يكن كل هذا فهى حادثة   أتى بها سببا فى حتفى القدر[١]

ومنه قوله أيضا :

وأستلذ بلائى فيك يا أملى   ولست عنك مدى الأيام أنصرف
إن قيـــل لى تتسلى عن مودته   فما جوابى إلا اللام والألف[٢]

ونذكر من قوله هذه الأبيات التى تخلق صورة رشيقة :

كأنها حين تخطو فى تأودها   قضيب نرجسة فى الروض مياس
كأنما خلدها فى قلب عاشقها   ففيه من وقعها حفر ووسواس
كأنما مشيها مشى الحمامة لا   كد يعاب ولا بطء به باس[٣]

ولابن حزم أيضا قصيدة فى خراب قرطبة آخر القرن العاشر ، وهى قصيدة عصماء لا يعدلها فى نوعها شيء . ولكن نثره أيضا أشعر فى جوهره من كثير من الشعر العربى نفسه ، وقد حاولت إثبات ذلك لكم فيما سقت منه . فإن من أظهر الخصائص التى أثرت فى كل الشعر الأندلسى فيما بعد أن بيئته الاجتماعية والطبيعية ، وأجواءه ، وأن قصر أشبلية وحمراء غرناطة ، كما نستطيع تصويرهما حين نتأمل دمنهما الباقية ، أشبه بأنشودة رقيقة ، لا شك أنها كانت أرق فى ذاتها من هذا الشعر الرشيق الذى ألهمته . ومع ذلك فإن هذا الشعر لم يكن أسبانيا خالصا وإنما كان يحمل كذلك طابع المشرق .

ثم كان تفكك الامبراطورية الأموية وقيام دويلات عديدة عرفت بدول الطوائف وكان العنصر الغالب فيها يختلف باختلاف الجهات ، فهنا يغلب العنصر العربى وهناك البربرى أو الصقلبى . وكان المتوقع أن يكون أثر تلك الحال الطبيعى فى الآداب العربية الأندلسية وفى الشعر خاصة أثرا مبيرا أوسيئا على الأقل . لكن الواقع كان عكس

(١) طوق الحمامة ص ١٩   (٢) طوق الحمامة ص ١١   (٣) طوق الحمامة ص ٥٨

ذلك . فقد كان القرن الحادى عشر ، عصر ملوك الطوائف ، عصرا عرفت فيه أسبانيا أكبر إشراق شعرى من غير شك . فقد كان الشعر مكرما حينئذ فى كل المدن التى أصبحت عواصم الطوائف : مثل طليطلة، وسرقسطة، وبلنسية، ومرسية، والمرية . ومع ذلك فلم يبلغ الشعر من التكريم فى هذه المدن مابلغ فى أشبيلية قصبة بنى عباد . وكثر الشعراء حتى ظهروا بين سائر طبقات الناس . وقد اعتاد مؤرخو الأدب أن يرووا ملاحظة وردت على لسان القزوينى المشرق : مؤداها أن كل حراث يسوق ثيرانه فى إقليم شلب — ويعرف اليوم باسم الغرب فى البرتغال — كان قادرا على ارتجال الشعر فى أى معنى من المعانى . وكانت قصور الدويلات الكثيرة تستبق فى دعوة الشعراء اليها جماعة إثر جماعة . وكان طبيعيا لذلك أن يقف الشاعر الملهم موضع الشاعر المرتزق أحيانا ، وأن تقام سوق تزجى فيها المدائح إن صح هذا التشبيه . ولكن قد يستجدى الشاعر ذو المواهب . ومع ذلك فقد كان هذا العصر الحافل بالانتاج الشعرى ينطوى على بوادر اضمحلال واضحة . كان إنتاجه فى كثير من الأحيان مصطنعا وخاليا من الصدق .

ومهما يكن من شىء فقد كان هذا العصر كبيرا ومن أكبر العصور التى أزهر فيها الشعر الأندلسى الكلاسيكى . فالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، على الرغم من أنه كان كسائر ملوك عصره : طاغية جبارا فى بعض نواحى حياته السياسية ، كان خير مثل للشاعر الأندلسى ولحماة الأدب المهذبين . وقد قال بعضهم إن المعتمد كان يمثل الشعر من ثلاث جهات : فهو من جهة صاحب أشعار رائعة ، وحياته ذاتها إلى ذلك قطعة حية من الشعر الخالص ، ولأنه نشر حمايته على كل شعراء زمانه ، وانتشر ظل حمايته حتى تجاوز ما تحت سلطانه وشمل من شردهم من أوطانهم هجوم النرمنديين على القيروان وغزوهم صقلية .

ولو شئت أن أوفى حياة المعتمد الملك الشاعر وآثاره حقها من الكلام للزمنى أن أفرد لذلك محاضرة كاملة . فقد بقيت ذكراه حية قريبة إلى نفوس المغرب والمشرق العربى على السواء . وقد اتخذ أصحاب الروايات والتمثيليات حياته موضوعا لقصصهم . وقد درست من حياته جانبها السياسى وهو جانب لا ينهض بحقه من غير شك . أما الجانب العاطفى فأشد خلابة وأسرا : كولعه باعتماد الرميكية ، وكمطارحاته الشعرية ، ثم نهايته المحزنة حين غلبه يوسف بن تاشفين الأمير المرابطى وأسره فقضى ما بقى

من أيامه بائسا ، وأُلزم الإقامة فى أغمات جنوبى مراكش ، فلزمها يبث شكواه أشعارا مشهورة جديرة بالشهرة ، هى رثاء لمآله أو صيحة يائسة لا يخففهما إلا شيء من الاستسلام والاتجاه فى ورع وحرارة إلى رحمة الله .

وثم اسم خالد آخر هو اسم ابن زيدون . كان معاصراً للمعتمد وإن مات قبله بعشرين سنة (عام ١٠٧٠) . وهو يعد بحق أكبر شعراء العصر الكلاسيكى الأندلسى الثانى ، والمتغنى بالحب الذى لا يعدله أحد . وقد أوحى إليه اتصاله بولادة : وهى أميرة من بيت ملك وشاعرة أيضا ، ثم هجرانها إياه ، أشعارا رائعة الجمال متميزة فى أكثر الأحيان بخلوها من البريق الصاخب الذى تميز به شعر من سبقه من الشعراء . وشعره إلى ذلك ذو نزعة إنسانية يكاد يشبه شعر الغربيين ، ولكنه صادر عن شاعر متمرس يستطيع حين يشاء أن يدير الشعر فى أصابعه بأدق الصور والتشبيهات . وأشهر قصائده نونيته . وأمثالها كثيرة فى ديوانه ، وكلها فى لطف فكرتها وأصالة عبارتها مما قد يبرر اللقب الذى لقب به أحيانا : وهو انه تيبول الاندلس[1] .

وقد أثقل عليكم إذا قدمت لكم ثَبتا ، مهما يكن مختصراً ، بأسماء الشعراء الكثيرين فى أسبانيا العربية فى القرن الحادى عشر . إن منهم من كان عاطفيا مثل ابن عمار ، ومن كان بكاء مثل ابن اللبانة ، أو متأججا بالحماسة الصوفية والتعصب مثل ابى اسحق الألبيرى ، وإن جميع هؤلاء الشعراء أشبه بفرقة موسيقية فيها كل آلة عازفة ، وهذا تشبيه صادق الدلالة أخذته عن جرسيا جوميز . وفى الفرقة زجر الفقهاء الوقور ، والهجاء اللاذع ، وعبارات الحب الافلاطونى الملتوية ، والنداء إلى المتعة ، وأناشيد الحرب ، والمدائح الغالية بطنطنتها وكذبها ، ووصف الولائم والنزه على الماء ، والاجتماعات المرحة ، وفيها كذلك الأسى على قسوة القدر ، واستحالة الفرار منه . ومع ذلك فقد كان فى هذا الكم الهائل الخامل من المادة الشعرية درر صادقة وأشعار ساحرة صافية رخيمة كرنين البللور أحيانا .

ثم بلغت أسبانيا منذ عام ١٠٩٨ مرحلة حاسمة من تاريخها ، فعادت طليطلة قبل هذا التاريخ بعشر سنين إلى سلطان المسيحية على يدى ألفونس السادس . وعزم يوسف ابن تاشفين الأمير المرابطى على التدخل فى الأمر ، فوصل إلى قرطبة فى السنة التالية ،

(١) شاعر رومانى عاش من حوالى ٥٤ ق.م الى ١٨ ق.م كان كريم السجايا مؤثرا للحياة الوادعة وله شعر رقيق قاله فى صواحب له .

وهزم الملك المسيحى ، ثم لم يلبث أن اقتنع بعجز ملوك الطوائف جميعا وانصرافهم عن التضامن ومواجهة الهجوم الذى تشنه عليهم حركة التحرر . فأخذ يعزلهم واحدا بعد واحد ، ويضم أرض الأندلس إلى إمارته . وصارت أسبانيا بعد ذلك تابعة لإفريقية فتبعت أسرتيها الحاكمتين : المرابطين أولا ثم الموحدين .

لقد حمل المؤرخون على المرابطين منذ نحو قرن تقريبا . وإنما تبعوا فى ذلك دوزى الذى درس تاريخهم دراسة ناقصة لنقص المراجع . فتمثلوهم برابرة صحراويين متوحشين أجلافا متعصبين : طغت جموعهم على أسبانيا لتستبد بها ولتخمد فيها كل شىء حتى عبقريتها الخاصة . وكان ذلك التصوير خطأ فاحشا وظلما بينا . والحق أن المرابطين حين تدخلوا فى أمور أسبانيا الإسلامية كانوا محقين حين استرابوا بأمراء عاجزين أو قانعين بالتبعية للملوك المسيحيين ، قد أعطوهم أرضهم قسمة ، وتمادوا فى تمزيق بعضهم بعضا . فإن كان المرابطون قضوا على المعتمد بالنفى الكريه ، وأخذ البعض عليهم ذلك بحق ، فإن المعتمد نفسه مع سمو شاعريته ، كان بعيد الشبه من أهل الصلاح . ثم إن المرابطين كانوا قبل عبورهم إلى أسبانيا يجتذبون أهل الأدب والشعر من الأندلس إلى بلاطهم الناشئ فى جنوبى مراكش ، ويطلبون التهذيب على أيديهم ، مع أنهم كانوا قريبى عهد بحياة بدوية رحالة شبيهة بحياة العصور الإسلامية الأولى . ومن الحق أنهم حين عبروا إلى أسبانيا ورفعوا قرطبة من جديد قصبة للأندلس وعاشوا بها ، قد عاشوا على هامش الجماعة الأرستقراطية المحلية دون أن يمسوها أو ينكروا عليها امتيازاتها ، وبذلوا العطايا ليشجعوا إشراق مواهب جديدة . ولم يستعملوا فى دواوينهم إلا أهل الأندلس . فعلت فى زمنهم منزلة السجع فى الرسائل الرسمية علوا لم يتهيأ مثله على الأرجح لأى عصر آخر . على أن المرابطين لم يتولوا السلطان إلا مدة شديدة القصر — إلى منتصف القرن الثانى عشر تقريبا — فلم يتهيأ لهم التأثير فى تطور الأدب الأندلسى .

وقد عاش بعض الشعراء الأندلسيين المسلمين فى ظل المرابطين ، وقالوا شعرهم فى ظلالهم . وأشهرهم ابن خفاجة الساحلى الذى اشتهر بوصف الرياض فلقب لذلك بالجنان . وصار لذلك فى المغرب ند الصنوبرى الشاعر المشرقى . ويرى بعض الناس أن المناظر التى يرسمها ابن خفاجة تكاد تكون « صورا فنية خالصة : مثل وصفه مواقف الغرام ومجالس الشراب ». ويعتبر ابن خفاجه هو وقريبه ابن الزقاق « أكبر الفحول فى الشعر الغنائى فى العصر الكلاسيكى الثانى بأسبانيا . فلم يكن لهذا الشعر بعدهما إلا أن ينسخ نفسه أو

يسير إلى الأفول» . ثم إنه قد يكون من الظلم ألا نذكر مجرد الذكر إلى جانبهما . الأعمى التطيلى، وأبا بكر بن بقى القرطبي المتوفى عام ١١٤٥ ويجب أن لاننسى أن عصر المرابطين هو أيضا عصر الشاعر الشعبي العظيم ابن قزمان . وهو الذى أنوى التحدث اليكم عنه فى شىء من التفصيل فى محاضرتى القادمة .

وخلف الموحدون المرابطين ، وكانت أيامهم أطول وأخصب كثيرا من أيام من سبقوهم . ومن الحق أن حركة التحرر المسيحية لم تنقطع عن التقدم فى أيام أمراء الموحدين ، وأن ذلك كان يزيد من قلق الإسلام الأندلسى ، وأن عام وقعة العقاب (أو لاس ناڤاس دى تولوزا) ؛ أى عام ١٢١٢ ، كان بدء حلقة متصلة مروعة من الهزائم وإخلاء البلاد وخيبة الآمال : لكن الموحدين استردوا اشبيلية ومالوا إليها وانصرفوا عن قرطبة ، واستطاعوا أن يجعلوا من اشبيلية درة جديدة فى جبين أسبانيا زمنا ما . أما آثارهم فكانت شامخة متينة وافرة العظم . وكان أمراؤهم ملوكا مستنيرين يحمون الفن والعلم والأدب ، ويقصدهم كثير من الشعراء . وكانت المدارس الإقليمية جادة فى نشاطها . فاشتهر فى ساحل أسبانيا الرصافى ، وصفوان بن إدريس . واستضاءت غرناطة بشاعرتها حفصة وغيرها . أما اشبيلية العاصمة فإنها أحست نفسها قد ردت إلى أيامها العبادية المشرقة ، لما كان بها من كثرة أهل الشعر ، وقد اشتهر منهم يهودى أسلم هو ابن سهل : وقد وصل إلينا ديوانه . وقد يكون من قلة الإنصاف أن أتكلم عن ابن سهل دون أن أذكر فى هذا الموجز عن إنتاج الأندلس الشعرى ما ظهر منذ القرن العاشر على الأقل من إنتاج شعراء اليهود بلغة عبرية . وأشهرهم صمويل النجيد وزير بنى زيرى بغرناطة، وكان رأس طائفته . وتهتم جامعة القدس الآن بجمع دواوينهم ونشرها ، وهى فى معانيها وطرق تفسيرها وعروضها قريبة الشبه جدا بالإنتاج العربى المعاصر لها .

وانتهى أمر الموحدين أيضا بالخروج من أسبانيا التى كانت أثيرة لديهم . ولم تعد الأندلس الفردوس الذى يتغنى به الشعراء . فإن حركة التحرر المسيحى كانت تسير قدما . وأخذت مدن العلم الكبيرة الفخورة بمعاهدها ومجدها الأدبى تسقط واحدة تلو واحدة فى أيدى الكفار : قرطبة واشبيلية وبلنسية . وسرعان ما تصاغرت الأندلس الإسلامية حتى لم يبق منها إلا إمارة ضئيلة قامت أكثر من قرنين بقليل فى غرناطة وشملت محيطها الضيق مع جبهة ضيقة على ساحل البحر الأبيض . وكان هذا عصر احتضار الأندلس ، وهو العصر الذى سرى فيه آخر شعاع مما كان يسمى بالحضارة والثقافة

الإسلامية قبل أن يدركه الجمود المحتوم . لكن غرناطة أظهرت حيوية أدبية احتفظت بها إلى النهاية . وظلت الحمراء وهو اسم قصر أمرائها من بنى نصر مجال الأعياد والمطارحات الشعرية التى كان يحسنها كبار رجال البلاط . وكان أكثر رجال هذا البلاط امتيازا رجل جمع بين السياسة والتاريخ والشعر متى خلا للشعر : هو لسان الدين بن الخطيب المشهور . كذلك بلغ الشهرة فى الشعر رجل آخر من رجال البلاط هو ابن زمرك ، وقد خص بميزة عظيمة هى نقش شعره بخط النسخ الرشيق على جدران قصر الحمراء . ثم يحل محل الشعر العربى الكلاسيكى طفرة شعر آخر قريب منه فى إلهامه : هو شعر الملاحم الموريسكى المكتوب بلغة قشتالة والمعروف باسم رومانسيرو .

*
* *

وأنا أخشى أن يكون هذا الحديث الذى بلغت نهايته حديثا متعبا لغلبة الصفة الفنية عليه أو ألا يكون أفادكم شيئا . فلأختمه الآن ، ولأسرع إلى تعزيز حكم عام قضيت به فى أمر الشعر الأندلسى منذ بضع سنين ، فإنى وإن كنت أحس من نفسى إكبارا له وإعجابا به فى كثير من الأحيان أخالف بعض النقاد المحدثين الذين لم يدرسوا إلا الشعر العربى الأسبانى الكلاسيكى والذين يرون فى هذا الشعر طابع حساسية أندلسية بحت ، فلست فى الحقيقة أعتقد صحة ذلك الرأى ، اللهم إلا إذا استثنينا ابن حزم . والحق أن أسبانيا لم تقطع صلتها قط بالعالم الإسلامى فى ميدان الشعر ، وأنه لم يوجد من شعرائها الكثيرين الذين قرضوا الشعر على أسلوب كلاسيكى شاعر واحد أراد حقيقة أن يلبس نفسه « ثوبا جديدا » إن صح هذا التشبيه . وقد لا ننكر إشراق عبقريات طارئة ، ولكن القاعدة التى استمسك بها الأندلسيون وأكبروها إلى آخر الأمر هى محاكاة الشرقيين فى نماذجهم . وهكذا أنشئت قصائد لا حصر لها فى مدى ثمانية قرون منها ما هو جليل ، ومنها ما هو رائع ، ومنها ما هو جدير بالإعجاب أحيانا ؛ ولكنها فى مجموعها ليست فى أكثر الأحيان إلا صورة على شىء غير قليل من الذبول مأخوذة عن إنتاج المشرق العربى فى عصره الأدبى الذهبى خاصة . فإذا كانت الأندلس تستطيع أن تفخر لنفسها عن جدارة ببعض الشعراء الفحول ، مثل من ذكرت آنفا ، فليس لها فيما أرى ممن تفخر بهم فى الشعر الكلاسيكى البحت واحد يمكن أن يعدل أثره أثر المتنبى مثلا أو المعرى . وإنما عمدنا إلى ذكر هذين الشاعرين دون غيرهما لعظمهما بين أقرانهما . أما موهبة الأندلس الشعرية وخاصيتها الأسبانية البحت فهى التى ظهرت فى نوع شعرى شعبى اتخذ صورة الموشح والزجل ، اخترعه

شعراؤها لها خاصة ، فازدهر فيها ، وأخذه عنها المشرق فى نفس الوقت . وهذا الشعر الشعبى الأسبانى العربى بمذاقه الأقليمى الخاص وطرافته وخياله المرح : هو الذى أريد أن أحدثكم عنه فى محاضرتى التالية . وسأخص بكلامى من هو حقيق بهذا التخصيص ، وهو ابو بكر بن قزمان « أمير شعراء الأندلس » .

المحاضرة الثانية

الشعر العربي الشعبي في أسبانيا

ابن قزمان "أمير شعراء الأندلس"

لقب «أمير شعراء الأندلس» الوارد في عنوان الحديث الذي أتشرف اليوم بإلقائه أمامكم ، لقب رأيت أن أضيفه إلى اسم ابن قزمان . ولم أقصد بهذا اللقب وضع شاعرنا في الذروة المثالية من مراتب الشعراء إذا قيس بغيره من شعراء الأندلس العرب . فإن ذلك أمر اعتباري من غير شك . ولكنه لقب يحمل من قوة التعبير ، فيما أرى ، ما يهيئ في نفوسكم جوا خاصا ، فينقلكم إلى جو أدبي مخالف في أساسه نفسه للجو الذي تخلقه عادة أبواب الشعر العربي الكلاسيكي ومعانيه وطرائق تعبيره . وأنا أريد أن أصل بكم إلى حكم عام على آثار شاعرنا الأندلسي : وهي آثار لم تعرف إلى اليوم معرفة تامة ولم تفهم فهما صحيحا ولم ينته العلماء من دراستها . وهي آثار تشبه آثار الغرب المسيحي في العصر الوسيط بقدر ما تشبه الآثار الشعرية في العالم العربي حينئذ . وقد نجد زجلا لابن قزمان لا نرى له مثيلا في الأدب الشرقي مهما استقصينا ثم نجده قريب الشبه مثلا ببعض شعر آدم دى لاهال[1] مثل قصيدته الريفية المسماة «لعبة روبان وماريون»[2] ، وكذلك قد نجد شبها بين آثار شاعرنا الأندلسي وشعر فرنسوا ڤييون الفرنسي على الرغم من تباعد الزمن بين الشاعرين . ولكني حريص على ألا أسرف في المقارنات . بل أنا حريص على ألا ألجأ إلى المقارنات السهلة بين آثار شعرية اختلفت عصورها ولغتها وعبقريتها . ومهما يكن من شيء فإن أقل عكوف على ديوان ابن قزمان العربي الأندلسي يقفنا على سلسلة من المشاكل الحساسة المتصلة بفقه اللغة والأدب معا : وهي مشاكل شغل بها علماء اللغة الرومانيسكية ومؤرخو الأدب المقارن قبل أن يعنى بها المتخصصون في الدراسات العربية بزمن طويل . ومن الضروري فيما أرى أن أمهد لما أريد أن أقول بمقدمة .

---

(١) هو شاعر شعبي فرنسي ويلقب أيضا بأحدب أراس عاش في القرن الثالث عشر الميلادي .

(٢) هي أوبرا كوميدية فرنسية . وهي قصة راعية اسمها ماريون ، وقد مثلت لأول مرة في نابلي بين عامي ١٢٨٣/١٢٨٥ م .

كانت أسبانيا الإسلامية — أعني بلاد الأندلس — تشهد منذ القرن التاسع إلى آخر القرن الخامس عشر المسيحي نشوء حضارة تميزت فى كثير من نواحيها بأنها كلّ أخاذ معقد معا ، جامع بين مؤثرات مختلفة تمثل الشرق والغرب جميعا . وتميزت هذه الحضارة فى كثير من نواحيها بالتجديد جريئا أحيانا ومترددا أحيانا ، وتميزت فى نواح أخرى بطابع عكسى : وهو المحافظة الأمينة على ما انتقل إليها من تقاليد على يد مهاجرة الفتح أولا ثم على أيدى الرحالة والحجاج فى العصور التالية . ولهذا بدت قرطبة ناقلة عن دمشق الأموية أول الأمر ، ثم عن بغداد العباسية بعد ذلك . وقد حاولت أن أثبت لكم فى محاضرتى السابقة أن الأندلس فى عالم الشعر لم تقطع قط صلتها بسائر العالم الإسلامى قطعا فاصلا . والتراث الأندلسى من الشعر الكلاسيكى تراث لا يشذ كثيرا عن التقليد والمحاكاة ، وإن كان فيه من الآثار الشعرية ما يعدل آثار الشرق . وقد كنت أقول فى عام ١٩٣٨ إن كل الشعر الأندلسى أو على الأقل هذا الشعر فى مجموعه لايعدو فى صميمه أن يكون شرقيا كلاسيكيا إلى أقصى حد . وقد ازداد لدى اليقين منذ هذا التاريخ أنه يبدو فى كثير من الأحيان شعرا مصطنعا فى لغته ، وإن بلغ حد الإتقان ، صادرا عن شعب فقد سليقته العربية الصحيحة . مثله مثل الشعر اللاتينى المتأخر الذى عارض به أصحابه : أوڤيد[١] وكاتيل[٢] وهوراس[٣] .

ولكن الأندلس كانت بعيدا عن مراكز العالم الإسلامى فى العصر الوسيط تفصلها عنها أراض شاسعة الامتداد . وكانت تحيا حياتها الخاصة فى جو طبيعى واجتماعى مختلف تمام الاختلاف . وكانت تجاور الغرب المسيحى الذى كان يتلمس طريقه بين اللاتينية القديمة والرومانية الحديثة . فلم يكن للأندلس بد من أن تتجه منذ البدء اتجاهات جديدة تصور تفكيرها ومشاعرها . ففى مجال النظر المجرد البحت لم تلبث الأندلس أن أمدت العالم العربى وأوربا الغربية بنتاج فكرى صادر باللغة العربية عن أفذاذ من المفكرين من المسلمين واليهود . ولم تلبث الأندلس أن قامت بدور هام فى نقل نتائج بحثها فى فلسفة أرسطو إلى الغرب . وفى أثناء ذلك كان إحساس الأندلس بأنه لا بد يتضح شيئا فشيئا

---

(١) شاعر لاتينى (٤٣ ق٠م٠/١٦م) درس فى رومة ورحل إلى أثينا وصقلية وآسيا الصغرى وقد بدأ حياته بالدفاع فى القضايا ثم غلب عليه الميل للشعر وهو يعتبر فى مقدمة الشعراء المغمورين وكان مقربا من القيصر أوجست .

(٢) شاعر لاتينى (٨٧/٤٧ق٠م) وكان أبوه متصلا بقيصر وترك له ثروة عظيمة ، وأهميته فى الأدب أنه أول من اعتبر الأدب فنا مستقلا مستغنيا عن أن يكون ذا فائدة عملية .

(٣) شاعر لاتينى (٦٥/٨ ق٠م) درس فى رومة ورحل الى أثينا لدراسة الفلسفة وقد توثقت الصداقة بينه وبين الشاعر فرجيل وإلى جانب قبره دفن حين مات .

لها من أن تخلق فى عالم الشعر نوعا يلائمها وينطلق من أسر الكلاسيكية وقيودها الضيقة ومعانيها التقليدية وصورها التى تمثل صحراء جزيرة العرب الناقدة لخاصية التنوع وتمثل حياتها البدوية تحت الشمس المحرقة فى بيئة جغرافية جمعت بين الرحمة والقسوة وبين المتفارق من الصفات . وكان لا بد للأندلس أن تتحول عمن يحب صوغ أدبه صياغة كلاسيكية وأن يغرق فى الصنعة وأن يحاكى المعانى القديمة متكلفا كل ذلك متجردا عن الحماسة كأنما ينشىء أدب المحاكاة والمعارضة المعبر عنه فى الفرنسية بـ A la manière de وإنما سلكت الأندلس طريقها الذى هيئت له حين اخترعت الزجل بلغة عامية عربية أسبانية ، وحين خلقت مايقابله فى العربية الفصحى وهو الموشحات. فجرى عندئذ دم جديد فى عروقها الشعرية بعد أن كادت تجمد . ولم تتردد الأندلس فى التحرر من كثير من قواعد العروض الصارمة العاتية ومن موجبات القافية والتزام قافية واحدة فى كل القصيدة كما يتحرر الإنسان من الأغلال . ولقد كانت هذه الأغلال إلى ذلك العهد مقبولة . ولكن الأندلس لم تستطع أن تبذ فيها أساتذة المشرق . وهكذا نشأ شعر مجدد أسبانى بحت ، وتسربت إليه اللغة الرومانية التى أصبحت لغة كثير من المسلمين . فجاورت العربيةُ العاميةَ الأسبانية . وكان ممثل هذا الشعر أمير شعرائنا الأندلسى أبو بكر بن قزمان .

لا شك أن الكثير منكم يعرف صنعة الزجل والتوشيح ويألفهما . وإنما جاءت هذه الألفة من أن هذا النوع الشعرى الذى ابتدعته الأندلس وأنشأت به الشعر التى فى المشرق العربى كله أوسع قبول . ولهذا اقتصر على التذكير بخصائصه الأساسية . ويمكن أن يعرف الزجل بأنه قصيدة ذات قطع قد تقل وقد تكثر . والقطعة تتألف من ثلاثة أبيات مصرعة فيما بينها وبيت رابع مصرع مع السمط والمركز . والمطلع ينبئ عادة عن موضوع القصيدة بوجه عام . والبحر المستعمل واحد فى كل القصيدة ولا يشترط أن يكون من من البحور العادية القديمة . وإنما يطبق هذا الشرط على الموشحات ، وهى وسط بين القصيدة القديمة ذات الشكل التقليدى وبين القصيدة العامية . وهى أيضا تنتهى عادة ببيتين بلغة عامية . أما مبتدع هذه الأنواع الشعرية المبتكرة فيحدثنا عنه كاتبان مسلمان كلاهما مغربى مشهور : هما ابن بسام فى آخر القرن الحادى عشر الهجرى ، وابن خلدون فى القرن الثامن للهجرة . كان المبتدع رجلا ضريرا — ودور الضرارة فى تطور الأدب العربى قديمه وحديثه ظاهرة جديرة بالاعتبار — كان هذا المبتكر الضرير يسمى مقدم ابن معافى . وأصله من مدينة صغيرة اسمها قبرة من إقليم قرطبة . ولا نعلم الكثير عن شخصيته وآثاره . وكل ما نعلم أنه عاش فى آخر القرن السادس الهجرى (١١ - ١٢ م) وهو الذى تخيل بناء هذا القصيد الجديد وتخيل فوق ذلك اصطلاحات أجزائه .

فسمى قطعة المطلع مركزا وسمى الأبيات الثلاثة الأولى من كل قطعة بالأغصان ، والبيت الرابع المصرع بالسمط . وسرعان ما صادف الزجل فى أسبانيا رواجا عجيبا يقطع به ابن خلدون وابن سعيد من قبله ، ويضيفان إلى ملاحظتهما هذه أن الأندلسيين سرعان ما أتقنوا هذا النوع من القصائد ،وأن كافة طبقات الناس أقبلوا عليه فى نهم عجيب لسهولة فهمه وسرعة حفظه . ثم إن هذه القصائد كانت تُؤلف لتغنى مع الموسيقى . وتتألف الموسيقى من المغنى تصحبه فرقة فيها وترى عواد أو زامر وطبلة صغيرة و"صاجات". اما المقطع فيغنيه المغنى مع الموسيقى ،وأما المركز المتكرر فيردده الحضور جميعا .

قلت إن الزجل أصبح موضع ذيوع وشغف عند المشارقة . والواقع أن آثار ابن قزمان الشعرية كانت أذيع فى بغداد منها فى مدائن المغرب الإسلامى ، على حسب ما رواه ابن سعيد فى القرن السابع . وقد ألف ابن سناء الملك المصرى آخر القرن السادس (حول عام ١٢٠٠ م) لعشاق هذا الفن الشعرى قصائد عامية وعربية مختارة سماها « دار الطراز » . ثم تطور هذا الفن فى بنائه وفى معانيه كذلك ، فاستُعمل للمعانى الصوفية . وكان محيى الدين بن العربى الأندلسى المشهور من أول من وضع الزجل التصوفى ليغنيه مريدوه جماعة فى حلقاتهم ، كذلك سرعان ما استعمل الزجل فى الشعر العبرى الدينى فى العصور الوسطى . والأعجب من هذا أن هذا النوع الشعرى بخصائصه وقطعه المصرعة انتشر كذلك منذ وقت مبكر فى المغرب الأوروبى نفسه ، ولا أقل من أن يقال أن كل شىء يدل على وجود قرابة بين بناء الشعر العامى العربى الأندلسى وبعض قصائد بروفانس ولنجدوك المنسوبة للمداحين المعروفين باسم « التروبادور » مثل جيوم التاسع دوق أكتانيا أو مثل ماركابرو .

ولكنى لا أنوى الإسهاب فى مناقشة هذه المشكلة ، ولا فيما انتهى إليه بحثى فيها . وقد بنيت هذا البحث على استقصاء الظروف التاريخية أكثر مما بنيته على المقارنة بين الموضوعات وصيغ التعبير . ولا أطيل لأننا سنفرد لهذه المناقشة محاضرتنا الأخيرة من هذه السلسلة من محاضراتنا عن الشعر العربى الأسبانى .

أما فن الشعر المعروف بالتوشيح ،وهو الفن الذى احتفظ باللغة الفصيحة إلا فى مراكزه فقد كان موضع دراسة كاد يتقادم العهد بها ، ظهرت فى ڤيمار فى ١٨٩٧ للمستشرق الألمانى مارتن هارتمان . وقد اختلف العلماء فيما إذا كان مقدم بن معافى الأندلسى واضع فن الموشح أم كان باعث فن قديم قريب الشبه بالمسمطات المعروفة عند شعراء

الجاهلية قبل الإسلام . لكن الشيء الثابت هو أن ذيوع الموشحات بدأ من أسبانيا منذ آخر القرن الرابع الهجرى ، وأنه لم يقف منذئذ عن النماء . وكان من عنى بهذا الفن فى قرطبة بعد مقدم ، ابن عبد ربه صاحب العقد ثم آخرون اشتهروا بالموشحات يذكرهم ابن سعيد والمقرى ، ويذكرون لنا مختارات واسعة من أشعارهم . ومنهم بطليطلة فى بلاط الملك المأمون : ابن ذى النون أبو عبدالله ارفع رأسه ، وفى المريه فى بلاط المعتصم بن صمادح : عبادة القزاز . ومن مشاهير أصحاب الموشحات أيام المرابطين : ابن بقى والأعمى التطيلى ، وأبو بكر بن باجه . ومنهم فى أيام الموحدين : إبراهيم بن سهل الذى حدثتكم عنه من قبل ، وابن خلف وكثير غيرهم . ومنهم فى بلاط غرناطة : ابن الخطيب وابن زمرك .

والموشحات تحوى تنويعا كثيرا فى قطعها وقوافيها وتصرفا فى أوزانها نفسها . وقد تناول هذا الفن المرن شعراء موهوبون فأنشأوا شعرا أكثر حيوية وأسلم سليقة من فنون الشعر الكلاسيكى المقيد بقيود صارمة . فمن الإسراف من غير شك أن نصف هذا الفن التوشيحى المبتكر بأنه شعر عامى بمعنى الكلمة ، لأنه فى أساسه شعر كلاسيكى مصبوغ بصبغة كلاسيكية على أى حال . وإنما كان مجال الشعر العامى وما تميز به من ألفة وسذاجة : هو الزجل .

ولننتقل الآن إلى ابن قزمان نفسه . إن أثره هو الوحيد الباقى تقريبا من العصور الوسطى إلى جانب نماذج يسيرة من هذا الفن ، مذكورة فى مغرب ابن سعيد ، أو باقية محرفة فى الأغانى التى توقع إلى الآن فى مدن مراكش ، أو محفوظة فى ديوان يكاد يكون مجهولا لمتصوف أندلسى هو التسترى ، وسأعود إليه بعد حين ، أو محفوظة كذلك فى زجل عثرت عليه مصادفة فى مخطوط عربى وطبعته وترجمته فى عام ١٩٤١ فى مجلة الأندلس الأسبانية[١] ، وهو زجل خاص بغزوة المرية للملك أرجون فى سنة ٧٠٩

واسم ابن قزمان غير عربى وجرسه أسبانى بحت ، ويخبرنا أصحاب التراجم أن بنى قزمان يرتفع نسبهم من غير شك إلى مولد عرف باسم ابن قزمان الزهرى ، وكان مقام بنى قزمان فى قرطبة منذ القرن الرابع على الأقل ، ثم تفرعوا بعد زمن شاعرنا ، فكان فرع منهم فى أشونة ، وفرع فى مالقة ، ولكن أصحاب التراجم مقلون جدا فى أخبار ابن قزمان نفسه ، فلامناص من جمع حياته من آثاره ، ولو أن الذى نجمعه من ذلك قليل .

---

(١) هى مجلة المستشرقين الأسبان تصدرها مدرسة الدراسات العربية بمدريد ابتداء من عام ١٩٣٥ وهى تصدر مرتين سنويا إلى الآن .

اسمه أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك ويلقبه بعضهم بلقب الأصغر ، تمييزا له عن سمى له هو عمه أبو بكر محمد بن عبد الملك الأكبر ، وكان العم شاعراً كلاسيكيا على شيء من الشهرة وزر لبنى الأفطس ببطليوس ، ومات فى (٥٠٨هـ = ١١١٤م). والغريب أنه وقع خلط بين العم وابن أخيه . وقع فى هذا الخلط ابن الأبار فى القرن السابع ، وابن الخطيب فى القرن الثامن ، وردد المستشرق الهولندى المشهور دوزى هذا الخلط ، وكذلك العالم التشيكى نيكل ، وهو الذى نشر ديوان ابن قزمان نشرة غير ناضجة ، ولقد نبهت على هذا الخلط حديثا فى مقالة عنوانها «شيء جديد عن ابن قزمان» نشرتها فى القاهرة ولندن ومدريد فى وقت واحد ، وأثبت فيها أن ما يوصف به ابن قزمان من التعمير جاء من إضافة عمره إلى عمر عمه . ومن جعل مولده فى أوائل القرن الخامس (القرن ١١ م) بدل أواخر النصف الثانى منه أو عام ٤٨٠ على وجه التحديد .

وما نجمعه عن حياته من آثاره نفسها ومن روايات أصحاب التراجم ينحصر فى شيء يسير يتلخص فيما يأتى : ولد ابن قزمان بعد وقعة الزلاقة ببضع سنين ، وهى الواقعة التى ابتدأ بها فى عام ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م تدخل المرابطين فى الحياة السياسية الأندلسية . وقضى ابن قزمان حياته فى قرطبة ، ولكنه ارتحل لزيارة مدن الأندلس الكبرى ، واتصل فى غرناطة بشاعرة مشهورة هى نزهون القلاعية ، وكان فى قرطبة وفى كل المدائن التى زارها مقربا من حماة الأدب الأندلسيين ، فمدحهم بمدائح ، ومات فى قرطبة فى عام ١١٥٩ بعد أن جاوز الستين ، وترك على الأقل ولدا واحداً اسمه أحمد ، وأقام أحمد هذ بمالقة ؛ ومات بها أول القرن السادس الهجرى ، وتدلنا بعض أشعار ابن قزمان على صفاته الجسمية : كان أشقر أزرق العينين يتكلم الرومانية كما يتكلم العربية ، وعلى حظ من الثقافة القديمة لأنه حاول فى شبابه قرض الشعر على الطريقة القديمة ، وقد نقل ابن سعيد لنا أمثلة من هذه المحاولات .

ويخبرنا ابن سعيد فى مختاراته بالسبب الذى صرف ابن قزمان عن الشعر القديم إلى الزجل ، فيقول ابن سعيد أخبرنا الحجارى أن ابن قزمان كان أول حياته يقرض بلغة «معربة» ، ثم رأى أنه لم يبلغ فى ذلك مبلغ كبار الشعراء فى زمانه ، مثل ابن خفاجة وغيره ؛ « فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم » فأصبح « إمام الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس » ، ونستخلص من عبارة أخرى أشرت إليها من قبل ورواها ابن خلدون فى الفصل الذى خصصه للزجل فى آخر مقدمته عن ابن سعيد : أن عزم ابن قزمان على صرف جهده وصنعته الشعرية إلى اللغة العامية كان عزما حكيما ، وشاهد ذلك ما لقى من توفيق وما كان من ذيوع فنه إلى ما وراء الأندلس وبلوغ صيته إلى بغداد نفسها

ومن المعجز حقا أن تبقى آثار ابن قزمان بلغتها العامية محفوظة كاملة تقريبا إلى الآن وهى باقية فى مخطوط وحيد لا يعرف غيره فى العالم إلى الآن ، هو مخطوط نسخ فى صفد بفلسطين فى منتصف القرن السادس ، وهو محفوظ منذ قرن فى متحف لننجرادالأسيوى ، وقد وصفه ذكتور دى روزن فى ١٨٨١ ، ثم صوره على الحجر ونشره فى ١٨٩٦ داڤيد دى جنزبرج ، وقد حاول كثير من المستشرقين فى أسبانيا وسائر أوربا منذئذ فهمه ، ولكنهم لم يفهموه إلا فهما جزئيا ، لإن لغة الشاعر تستلزم معرفة خاصة بالنحو ومفردات اللغة التى استعملها ، إلى أن كان عام ١٩٣٣ فأخرج العالم التشيكى ا . ر. نيكل الذى ذكرته آنفا نتائج أبحاثه عن ابن قزمان ، ونشر شعره ونقله بحروف لاتينية مع ترجمة جزئية بالأسبانية ، ولقد أضر هذا النشر بالشاعر أكثر مما نفعه ، ذلك أن نشر نيكل حوى أغلاطا كبيرة كثيرة ترددت بطبيعة الحال فى ترجمته ، ولكن المستشرق الفرنسى ج . س . كولان ، وهو المتخصص الوحيد فى لغة ابن قزمان وفنه الشعرى انتقد هذا النشر انتقاداً صارما مقبولا ، وهيأ للنشر منذ بضع سنين جميع أزجال مخطوط لننجراد منقولة إلى حروف لاتينية وفق قاعدة ثابتة . وقد سار على ضرورة الانتباه إلى حروف المد والعلة الفاصلة كما ظهرت فى اللهجات العربية الأندلسية ، وسار على ضرورة التوفيق بينها وبين نظام الزجل الشعرى ، وقد ذلل هذا النقل أكثر الصعوبات التى ضللت من قبل من أراد دراسة ابن قزمان من المستشرقين ، فبدا شعر الشاعر صافيا منسجم الوقع ، واتضح ما كان غامضا بسبب القطع فى الكتابة ، إلا بضع عبارات لا تزال غامضة غير مفهومة ؛ وهو أمر طبيعى فى مخطوط نسخ على آلاف الأميال من أسبانيا ، ولعل الأصل الذى نسخ عنه كان محرفا . أما المشكلة الفقهية الفيلولوجية فى شعر ابن قزمان فتعد اليوم محلولة ، وسوف يكون بين أيدينا عما قليل ترجمة لديوانه أضيفت إليها قطع لم تنشر بعد مأخوذة من أصل بخط ابن سعيد محفوظ فى مكتبة القاهرة الملكية ، وسوف اقتبس من هذا النقل ، الذى اشتركت فى ترجمته إلى اللغة العربية مع ج . كولان ، ما أرويه لكم بعد فى حديث اليوم .

ولا أريد التعرض للناحية الفيلولوجية من شعر ابن قزمان ، وإنما أريد أن أبين قيمته الشعرية ودراسة معانيه العامة التى يسترسل فيها لإلهامه ، فيطلعنا على ابتكار ماكاته وفيض الحرارة فى أخيلته ، فهو تارة نهم ، وتارة عربيد أشنع العربدة ، أو أفاق ، أو مملق ، وهو تارة سيد عظيم ، أو ظريف متفنن فى الأدب ، أو محب رقيق ، أو رجل بحث ، أو مؤمن ورع مؤد للفرائض .

وله فى مخطوط صفد ما لا يقل عن ١٩٤ زجلا تختلف فى طولها ، وهى مجموعة غنية عظيمة التنوع بحيث تصلح أساسا للدراسة النقدية . ولأوجز فى بضع كلمات تركيب هذه المقطوعات الشعرية فأقول : تختلف أطوال البحور فى أزجاله ، ويتراوح عدد الأشطار فى القطعة بين أربع واثنتى عشرة ، وكل قطعة متشابهة النصفين فى طولها وقوافيها ، والقافية تسبق عادة فى المطلع أو المركز ، ويتضمن المطلع عادة الإشارة إلى موضوع الزجل بصفة عامة ؛ ويتنوع تشكيل القوافى تنوعا معقداً ، ولكنه طيع فى يد الشاعر .

وكل زجل من أزجال ابن قزمان يحوى قسمين متميزين : الأول مطلع يشتمل على دعابة أو عتاب أو تشبيب ،وفيه مشابه كثيرة فى صوره ومعانيه من نسيب القصائد القديمة. ثم القسم الآخر وهو أقرب إلى إلهام الواقع ، مثل مدح الممدوح الذى تُنشد له القصيدة والذى ينتظر نائله ، والمدائح كثيرة فى شعر ابن قزمان . هى نحو مائة ، أعنى أنها ثلثا شعره كله ، وقد مدح بها أشخاصا اختلفت أصولهم ومكانتهم ، كما نتبين ذلك ممن نعرفه من ممدوحيه ، ويستخلص من مدائحه أنه تقرب إلى ثلاث شخصيات ، إحداها الوشقى ويدل نسبه على أنه كان من أشراف قرطبة ، وأن أصله من مدينة وشقة بإقليم أرغون ولا نعلم عنه بعد ذلك شيئا . والأخريان شخصيتان معروفتان هما أبو القاسم أحمد بن حمدين وأخوه جعفر بن حمدين . وكلاهما كان قاضيا فى قرطبة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، وجعفر هو الذى رأس فى ١١٤٥ الثورة على المرابطين فى أسبانيا . ومدح ابن قزمان عدا هؤلاء الثلاثة أشرافا من المرابطين وأشرافا من قرطبة واشبيلية وغرناطة . لكن الشاعر لا يقتصر على مدح الممدوح ، وإنما يمدح نفسه فى نفس الوقت ويمدح شعره ويعلى من قدرته إلى أقصى حد بطريقة تذكر بقدماء الشعراء فى العصور الذهبية .

وإلى جانب قصائد الغزل والمدح يحوى ديوان ابن قزمان على التقريب اثنى عشر زجلا خمريا وثلاثين زجلا غراميا خالصا ، وقد استعمل هذه المعانى التشبيبية والخمرية كمطالع لمدائحه أيضا .

وأزجاله المجموعة التى وصلت إلينا تمثل بطبيعة الحال كل حياته الشعرية ، وهى صورة يتفاوت حظها من الدقة ، ويقل حظها من الإخلاص ويكثر على حسب الأحوال ولكنها تصوير لتقلباته وحياته العاطفية ، ومشاغله المادية التى صادفها قبل أن يبلغ الشيخوخة وقبل أن تعود إليه حكمته وتنزع به إلى التوبة والتقوى .

ولست أعرف فى الأدب العربى والغربى شعرا أكثر استرسالا مع الطبع وأكثر أخيلة وحياة وطرافة من شعر ابن قزمان . فإن كان لا بد من مقارنته بشاعر من شعراء العصر الكلاسيكى فإنه لا يقرن إلا بأبى نواس . وطريقته أن يدخل كل معانى الشعر الأندلسى الكلاسيكى فى شعره سواء أكان الموضوع فى الوصف أم الخمر أم الهجاء أم الحرب أم الحب أم اللذة . ولكنه يطبع كل هذه المعانى بطابعه الخاص وهو طابع عصى على التقليد .

ولنقدم أولا زجلا منظوما على الطريقة الغالبة : أى أن يذكر الشاعر فى صدر الزجل العهد القديم وما كان له فيه من مآرب الحب ، ومن حياة ميسرة قبل أن تغرى بسلوكه ألسنة العذّال وقبل أن يذهبوا بصفو أيامه . ثم يأتى صلب القصيدة : وموضوعه مدح سرىّ قرطبى من بيت معروف هو أبو اسحق بن عبد البر واستجداء لنواله وإطراء خفى للقصيدة ذاتها . [١]

— أى وصال كان لو دام !
صبرونى نصبر
يا عشاق ؟

— احتفظ يا عاقل
ما يقول العاذل [٢]
قولوا قول باطل
فالرقيب والنمام
هم يقيموا الشر
على ساق

— يا زمانا قد باد
فيك نغيظ الحساد
ريت الأيام اعياد

---

(١) نقلنا الزجل عن ديوان ابن قزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب ص ٣٧ رقم ١٥١٣

(٢) جاء فى المخطوط السابق "كل قولا باطل" بتخفيف القاف فى قل ، ولكنا نتبع هنا الأصل الفرنسى لوضوحه .

م ضارت أحلام

بهته وقت تذكر [1]

واطراق

— طول حياتى نجنح

والهتى قد يلكح

آش قدرت أن نرجح

من قبلا فى اهام

مثل طعم السكر

لمن ذاق .

— دع بنا هذا الفن

وامدح النّسك[2] من

ان قصدت أحسن

فاسقط الاستفهام

اذ حديث اشهر

ف الآفاق[3]

— الأمين النصاح

المضى كالمصباح

النقى الفواح

الضحوك البسام

المليح المنظ

والأخلاق .

---

(١) هكذا رسمت بالمخطوط

(٢) رسم المخطوط الناسك دون مد ووضع عليها الحركات .

(٣) « « " فالآفاق " ورأينا إفراد الفاء ليظهر معناها وهى حرف جر .

آش يقول الشاعر
ماه شمسا ظاهر
فى ثناه العاطر
نُظمت ذا الأقسام
انتظام الجوهر
فى الأعناق .

— ان رأيت ما اتمنيت [1]
نذكروه آخر بيت
واش فى ذا ان غنيت
الكرم والاكرام
عند ابن عبد البر
ابو اسحق [2].

ثم إليكم زجلًا آخر أدل من الزجل السابق على خاصية الشاعر . الغزل فيه يردد ذكرى رائعة لنزهة ريفية على ضفاف الوادى الكبير ازدحمت فيها الأخيلة فخلقت جوا من الاسترسال المستهتر وسط منظر منسجم أحسن الشاعر وصفه بلمسات يسيرة من يد فنان صناع . ثم يأتى ذكر الممدوح وهو غير مسمى . ويردد الشاعر هنا المعانى القديمة المألوفة ، فتبدو ثقيلة إلى جانب الخفة الصافية التى امتاز بها صدر الزجل[3] .

لا نزاهَ الا فى الواد والنشم والخضر[4] والدل
وانا مع المليحة نشرُب والطير تولول
فالعروس اليوم تراه لس يخاف يصفه واصف
مر ترى الوادى مجلل بالصبايا والوصايف
عملوا ثياب من الما ومن الشعور ملاحف .

---

(1) هكذا رسمت الكلمة فى المخطوط
(2) هكذا ورد فى المخطوط .
(3) انظر ص ٣٤ من المخطوط .
(4) أو بالصاد .

ثم برقعو ها الأقمار فرأيت أجمل وأجمل
الخليج أكثر نزاهَ وأطم عاد وأطبع
دخلت وأنت مهموم نيزول الهم اجمع
فاذا اردت ذاب أن ترى الغابَ فاطلع

وارتبط فى البخش واشرب وانطرب وغنى واصهل
بخش من بان ظهلك ان قد نسيتك — اسمع
ففوادَ [1] ات مصور اياك ا [2] حبيبى تفزع
المعسلا على الألوان ولكن للساق يرفع

قد جعلت الواد الوأن وجعلتك المعسل
ذو الجلال عطاك وولاك وحباك وعاد يزيدك

انت هُ سلطان زمانك والملاح أجمع عبيدك
كل من يراك يحبك ، كل من يراك يريدك
كل من ترى غلامك ول من تريد واعزل

لس ، ومن خلقن ، رضوان را قط فى الجنة ذا الخنس
الصباح قد غار لحسنك . وغضب — مسكين وعبس
والقمر بهت فى حسنك واختنى من نورك الشمس

وراى هاروت لعينك وهرب فالحين وفرنل[3]

* * *

ولابن قزمان سلسلة أخرى من القصائد فى الوصف جزيلة المعنى جرى بها لسانه الطلق استجداء لبعض قطع من ذهب ، مدح بها كرماء صادفهم عند اقتراب عيد إسلامى مثل عيد الأضحى أو عيد الفطر أو عاشوراء . وهو فى مثل هذه القصائد شاعر مرتزق

(١) ففرادات. (٢) الألف هنا بدل ألف صغيرة فوق الكاف السابقة
(٣) فى المخطوط نون : فرنل كما رسمنا .

بمعنى الكلمة يتمثل فيه الجشع والعدم والحاجة الملحة للمال . ولكن فيض أخيلته وقوة شاعريته توقعه على معان جليلة يسوقها فى صناعة رائعة . وأنا أسوق مثلا من هذه القصائد وهو عبارة عن سلسلة من الصور الحية ومن التعبير الدقيق ، رائعة فى ألوانها متميزة بحيويتها (١) :

دخلت ثقلة السوق فالا بد عن أمارَ
والبروز يوم الاثنين فاعطنى البشارَ

ثقلة العيد فى حملان الكباش القرايب
والقدور والصحيفات والقالل والمحالب
وجلوس كل عطار بالعطر ف (٢) المناصب
وفى شان تشويط الروس حفرَ فى كل حارَ

كبش باسم الضحية يشتريه كل مرماد
فهُ ظاهرُ لله والقصد فرح الاولاد
وش يقاسى الإنسان من حرارة ف (٣) الأعياد
بالخروج للمصلى تنطفى ذى الحرارَ

كل وجه مزين ليلة العيد هُ برا
والبكا بالمقابر على الأحباب ذ مرّاً
احتفال الفجايع ف احتفال المسرَّ
ودموع الترحم فى ثياب الشطارَ

نختصر فى كلامى ولا يعجبن طول
آش نسل عن فروع إذا انفنت اصول
الذى جيت ف شانُ ينبغى أن نقول
جملة القصة : نسعى . قد فهمت الإشارَ

---

(١) انظر ص ٥٣ من المخطوط (٢) وردت الفاء فى المخطوط متصلة بالمجرور ومفتوحة .
(٣) رسم المخطوط حرف الجر مفتوحا متصلا بالمجرور.

اعطى كبش للعيد ما نزردق ونبلع
ونذبح ونفصل ونقدد ونرفع
ونصنف وناكل من شوى حتى نشبع
ثم نلبس ثيابى ونجيك للزيار

وأحب أن أسوق كذلك نموذجا من خمرياته دون أن أتوخى الاختيار . وكان هذا النوع ذائعا فى شعر الأندلس الكلاسيكى . فإنه لم يخل عصر أندلسى من الخمريات : وخاصة من ولائم الشراب التى كانت تقام فى القوارب على صفحة الوادى الكبير عند قرطبة أو اشبيلية . وقد استخف ابن قزمان الشراب وذكره فى أحد أزجاله ، فجاوز فيها حدود الأخلاق المرعية . فتمنى أن يدفن عند جذع كرم . وهو فى هذا يذكرنا بأبى محجن الشاعر الشرقى الذى ابتدع هذا المعنى ؛ فيقول :

فإذا مت ، مذهبى فى الدفن أنى نرقد فى كرمه بين الجفن
وتضم الورق علىّ كفن وفى راسى عمامـة من زرجون

ثم هاك مثلا آخر من خمرياته يقارن فيه بين أخذ الشراب النحاسى اللون وبين محبوبته زهرة مقارنة وافرة الإمتاع [١] :

أنا نفرغ وزُهَر تملا لى
بياضى معشوقى وعلاّ لى

جلست بين الشراب فمحبوبى
فهذا حبى وهـذا مشروبى
وذا الزمان قد عمل مرغوب
نرى فى زهر المليحة آمالى

رمت بعينيها قلب المحسوس
والناس راوا باهَ أثرها مغروس
فقالوا خنجر وقالوا ضربة موسى
وقالوا بجحدم وقالوا نبالى

(١) انظر ص ٣٤ من المخطوط .

قالوا لى استاذ امشى بنا الدار
تشرب وتسكر تبيت مع الخنار
وانا مرقق فى مثل ذى الأخبار
نضم عاجل ليلاً يبدالى

شراب أصفر حبيبِ مولاى
سرورى فرحى طبيب من داى
عقارى خمرى شمولى صهبائى
مدامى خندريس جريالى

نرى من الراى لنفسى أن نقطع
فان من هو على خطى يرجع
فثم ما هو أعز لى وانفع
ابن عديس ان مدحت أولا لى

فتح طريق العمل على العمال
ولس نقول عنهم انهم جهال
انما فيـــه صلاح لبيت المـال
وللرعيه ، نعم ، وللوالى

وقد امتد بنا هذا العرض ، وأنا أخشى رغم الإسراع فى عرضه أن أستنفد صبركم واهتمامكم . فلنقصد إذن إلى قصائد بلغ فيها ابن قزمان فيما أرى ذروة الصنعة : وهى قصائده الغرامية . ويحسن قبل عرض بعضها أن أذكركم ببعض ملاحظات : يعترف الشاعر ويكرر الاعتراف مرات أنه لا يريد أن يتغنى بحب المروة ، ولنسمه نحن ان أردتم بالحب الأفلاطونى أو الروحانى . فليس مثل هذا الحب من شأنه . ويتأكد ذلك عندنا من بعض أزجاله . فإن منها ما لا نجيز لأنفسنا أن نقرأه على الحاضرين . ولكن منها قصائد أسمى جوهرا وألطف إلهاما وأصدق مقالا ، مع تفنن فى المحسنات وتنويع فى الألوان ؛ وهى التى أريد أن أقف عندها . فهى على الجملة تنف من حساسية مقبولة

رزينة . وأتمنى أن تذكروا ابن قزمان من خلال هذه القصائد وحدها ، فهى من عيون القصائد فى نوعها. ولعلى أقنعكم برأيى حين ترون براعة سوقها وحسن جرسها . وها هى ذى أولا قصيدة نجيمة المشهورة . وهى قصيدة قد نشرت فى بعض المختارات وترجمت لأنها تامة الخفة ، هذا إلى ما فى آخرها من دعابة طريفة [1].

ذاب نعشقك لا لِمة نجيمه
من يحبك ويموت فيك
ان قتلت عاد يكون بيك
لو قدر قلبي يخليك
لم يدبر ذا النُّغيمة

يا مطربن شلباطُ
تن حزين تن يناطُ
ترآ اليوم وشطاطُ
لم نذق فيـــه غير لُقيمه

قلت هم الله الأكبر
لس نطيق منه على أكثر
اذ نريد مسجد الأخضر
قند[2] عاد بير النشيمه

يا زين المحافل
ومليح ، نعم وعاقل
اى حُجير ات[3] عن مثاقل
لو جعلك الله جذيمة

---

(١) انظر ص ١٥ من المخطوط .

(٢) رسم الكلمة غير ظاهر وقد رجحنا لفظ قند بمعنى السكر واللفظ فارسى الأصل .

(٣) الخط غير واضح ويمكن أن تقرأ أى .

كل عشق[١] فيك هو مولوع
سحر بابل هو فيك مجموع
كل نادر منكَ مسموع
متى ما قلت كليمه

فمن التفاحِ نهيدات
ومن الدرمك خديدات
ومن الجوهر ضريسات
ومن السكر فميمه

لو منعت الناس من الصوم
وتقول اكفروا يا قوم
ما بقى الجامع اليوم
الا مربوط بخزيمة

انت من الفانذ[٢] احلا
وانا مملوك وانت مولا
مولاى ومن نقل لا
نرمى فى عنقُ لطيمه

إلى كم ذا الصد عنى
وإلى كم ذا التجنى
جعل الله منك ومنى
فداران[٣] خالى خزيمه

(١) المراد عاشق .
(٢) اقرأ أيضا الفاتد ولعلها الفانيذ وهو ضرب من الحلوا فارسى معرب
(٣) المقصود فى دار فوصل الفاء ثم نوّن على طريقة العامة أحيانا .

وها كم أيضا صورة من محبوبة هجرت الشاعر :

تقطع اكبادى يا صَبَىَّ
آش لو دريت الذى حل بى

من شوق ان نبلغ فيك مرادى
لس تنغلق عينى فى رقادى
الله بعد يعلم اعتقادى
ويعلم النىَّ والطوىَّ

يومً نراك يا عينى يا بياضى
وخدك الأزهر هُ رياضى
اذ أنت حبيب قلب عنى راضى
انا فى أخلاقى الرضى

ذا الحسن هُ عبدك أو أسيرك
فالدنيا تزين لمسيرك
وساعة تطلع فى سريرك
اشرقت الحارَ والحىَّ

وجهك هُ نور عينى وصباح
فانت هُ ريحانى وانت هُ راح
ولس يجى فرحى واقتراحى
حتى نرى طلعتك البهى

يابهجة العاشق يا حيات
انت هو سبب عيش وممات
مذ راى عينك هى كفاتُ
وقتيل العينين لس ل دىّ

(١) انظر ص ١٢٠ من المخطوط

نقل انظرها قط واصبر
هاذا الصبر شط هو أو مدور
واش لونُ يا صاحب : يمكن اخضر
او اصفر او عودى المرىّ

لو أن بالعاشق ثلث ما بى
لس كان يبصر جلدى فى ثيابى
ذا العشق ما أشهاه فى عذابى
واى محن هُ اوذن وى بليه

ونختم هذه المجموعة من القصائد بقصيده سبق بها شاعرنا جنجورا الشاعر الأسبانى . وفيها يبث ابن قزمان شكواه من نأى محبوبته أم الحكم عنه . فيؤلف من عدة أخيلة صورة جذابة من جمالها العاتى ونسيانها له . ثم ينصحها بالاحتجاب عن عيون الناس وصم آذانها عن قالة السوء وأهله . ثم يرتفع فى تصويره فيختتمه بصورة لا شك فى أنها أصل ما عرف فى صنعة المتصنعين وهى صورة أسبانية صميمة فى نفس الوقت :[1]

كف لس يكون ماعى فالغربة هم
وخلّيتُ قلبى لأم الحكم

بقى محّ قلبى ونا فالسفر
وشط النهار وصار من شهر
وغابت لى منيه وغاب القمر
وبعد فراقها جانى الندم

من الوحشة فالغربة قلب يفور
لسلطانةَ الدنيا نمضى نزور
وقد تمت أعوام وتمت شهور
وعشقى لام الحكم لس يتم

(١) انظر ص ١١٨ من المخطوط .

لام الحكم نحو بين الجوار
لام الحكم خد كالجلنار
لام الحكم عينين ان سود كبار
مخرقة بالشقف تسحر أمم

فيا سكراً منتخب فالمذاق
بحق ذك الشفتين الرقاق
لاتنس ذمام القبل والعناق
واذكر على صحبتى والتهم

واوفى لأن محبك وفى
وداع الخروج واحتجب واختف
وصدق لمن قلك الخيرا فى
واياك تطيع من يجى لك ينم

وكن لرسولى قريب الحجاب
وان كان ترضى وترسل كتاب
بدمى نسطر اليك الجواب
ونبرى عظامى مكان القلم

ويكفينا اليوم هذا القدر من التجوال فى آثار ابن قزمان . وأرجو أن أكون استطعت إلى حد ما أن أبين كيف أن هذا الشاعر الأندلسى استطاع أن يضيف إلى تراث بلاده الأدبى والفنى شيئا جديدا ، على الرغم من اتخاذه العامية لغة للأدب ، أو بفضل اتخاذها كذلك . على أنه لم يبرع فى فنه فحسب ، بل أنشأ تقليدا تبعه الشعراء من بعده . وتجاوزت شهرته حدود المغرب وسار بعده على طريقته فى الزجل كثير من شعراء الأندلس خاصة ، فزادوا فى بهائه . واصطنعوه خاصة فى باب التصوف ومدح النبى (ص) فى قصة مولده ونرجو حين يطبع ديوان ابن قزمان أن يطبع كذلك ديوان مواطنه الششترى . وأحب أن أختم هذه المحاضرة عن الشعر الأندلسى الإسلامى الشعبى بذكر بعض أبيات من

زجل للششترى ، وهو زجل رائع سما إلهامه . وهو مما نشره صديقى الأستاذ مسينيون عام ١٩٢٩ ضمن مجموعة نصوص لم تنشر من قبل عن التصوف فى البلاد الإسلامية[1] ، وهو زجل فى الحب الإلهى لشاعرنا الأسبانى الموطن ، من ذلك الوطن ومن ذلك الجنس الذى أنبت فيما بعد قديسين مسيحيين مثل سانت تيريز دافيلا وسان جان دى لاكروا .

شيخ من ارض مكناس وسط الأسواق يغنى
آش على من الناس وآش على الناس منى

آش على يا صاحب من جميع الخلايق
الذى هو تهواه ، هو خالق ورازق
لا تقل يا بن كلمه إلا ان كنت صادق
خذ كلامى فى قرطاس ، واكتبه حرزا عنى
آش على من الناس . . . الخ

ثم قولا مبين لا يحتاج عباره
آش على حد من حد افهموا ذا الإشارة
وانظروا كبر سنى والعصا والغراره
هكذا عشت فى فاس وكذاك أنا هونى
آش على من الناس . . . الخ

وما أحسن كلامه اذ يخطر فى الأسواق
ترى ناس الحوانت تلتفت لو بالأعناق
بغراره فى عنقو وعكاكيز واقراق
شيخ مبنى على أساس ، كما انشاه الله مبنى
آش علىّ من الناس . . . الخ ؟

* * *

(١) نقلنا الزجل من النصوص التى نشرها مسينيون وحافظنا على رسم الحروف كما نشرت ، ويلاحظ أن المحافظة على الرسم فى الزجل العامى ضرورة لا مفر منها .

المحاضرة الثالثة

الشعر العربى الأسبانى والشعر الأوربى الوسيط

أريد فى هـذه السلسلة من المحاضرات التى أتشرف بإلقـائها بين أيديكم عن الشعر العربى الأسبانى : أن أحدثكم اليوم عن مشكلة عظم الجدل فيها منذ عدة سنين . وقد عرضنا لها فى أحاديثنا السابقة ببعض إشارات وهى المشكلة الخاصة بما قام من العلاقات بين الشعر العربى الأندلسى الشعبى كما حاولت أن أقدمه لكم فى صورة مجملة من ناحية ، وبين الشعر الذى أخذ فى الظهور منذ آخر القرن الحادى عشر المسيحى فى جنوبى فرنسا ووسطها وشمالى الجزيرة الإيبرية وفى إيطاليا : وهو الشعر الذى يسمى بشعر التروبادور أو التروڤير أو الجوجلاريس حسب لغة أوك أو لغة أويل أو لغة قشتالة التى قيل بها هذا الشعر من ناحية أخرى [1] .

وهذه المشكلة التى نعرض لها شديدة العسر وذات جوانب معقدة . وسأحاول أن أحدد وضعها بكل وضوح ممكن . وذلك قبل أن أحدثكم عن الآراء التى أميل إلى الأخذ بها فى أمرها ، وسأحاول قبل ذلك أيضا أن أقارن بين الحجج اللغوية والحجج التاريخية التى تساق تأييدا للرأى السائد اليوم فى بعض أوساط العلماء الرومانيين القائل بقرابة الشعرين بعضهما من بعض قرابة مؤكدة .

ولعل من الخير فيما أرى أن أذكر لمن حضروا محاضرتى الأخيرة ، ومن لم يحضروها الخصائص الأساسية التى تميز الشعر الشعبى الأندلسى . نشأ هذا الشعر الشعبى فى الجزيرة الإيبرية منذ أواخر القرن التاسع . ولا شك أنه كان نوعا من رد الفعل الناشئ عن خضوع الشعر الكلاسيكى إلى أشكال عروضية صارمة . فالقطعة الشعرية التى تقصد على الطريقة القديمة تلتزم قواعد دقيقة فيما يخص بحرها الذى يجب ألا يتغير مهما طالت القصيدة ، وتلتزم كذلك قواعد فيما يخص قافيتها التى يجب أن تظل واحدة

(1) لغة أوك إحدى اللهجات الفرنسية القديمة ، ومثلها لغة أويل . والمغنى الشعبى يسمى تروبادور فى اللهجة الأولى وتروڤير فى الثانية وجوجلاريس فى لغة قشتالة الأسبانية .

من أول القصيدة إلى آخرها . أما الشعر الشعبى كما تخيله وصاغ قواعده مقدم ابن معافى كفيف قبرة ، حسبما يروى بعض أدباء العرب ، فإنه يبيح استعمال بحور جديدة ويبيح تنويع القافية فى القصيدة الواحدة . وقد يكتب هذا الشعر بلغة فصحى أو بلغة عامية . فيسمى فى الحالة الأولى موشحا وفى الثانية زجلا . لكن الموشح والزجل لا يختلفان فى مقومات بنائهما إلا من حيث اللغة المستعملة. ومع ذلك فقد يأتى فى آخر الموشح فى الغالب نوع من الخارجة تتألف عادة من بيتين لا يلتزم فيهما الشاعر العربية الفصيحة ولكنه يستعمل فيهما العربية العامية أو الرومانية .

ولنأخذ موشحا أو زجلا مثلا . ولننظر فى عناصره المكونة له : أولا — بيتا المقدمة اللذان يسميان بالعربية المركز . وهما يتضمنان الفكرة العامة التى يراد تأليف معناها . وتلتزم فى بيتى المركز قافية واحدة . ويتبع المركز عدد من المقاطع يختلف عددها على حسب هوى الشاعر ؛ ويتضمن كل واحد منها أربعة أبيات تلتزم فى الثلاثة الأبيات الأولى منه قافية واحدة . أما قافية البيت الرابع فلا بد أن تأتى من جنس قافية المركز . وها هى رموزه التخطيطية : ا . ا — ب . ب . ب . ا — ج . ج . ج . ا .

وتسمى الأبيات الثلاثة الأولى من المقطع : الأغصان ؛ ويسمى البيت الرابع المجانس فى قافيته للمركز بالسمط . ويجوز إدخال أشكال أخرى . فبيتا المقدمة أو الفكرة أو المركز يجوز أن يتألف مثلا من : ا . ب . ج فى ثلاثة أبيات . وأن تكون المقاطع مكونة من ستة أبيات : د . د . د . ا . ب . ج.

أما الزجل فهو، كما قلت من قبل، ليس نتاجا شعريا يقصد به الإلقاء . وفى ذلك ما يبرر إلى حد كبير طريقة المقاطع . ومن اليسير أن نتصور الاجتماعات التى كانت تنشد فيها هذه القصائد : فلنتصور فرقة موسيقية مؤلفة من عوّاد وزامر وطبّال أو ضارب بالصاجات . ولنتصورها تصحب المغنى أو المغنية . فيبدأ المغنى بالمركز ، ثم يصير إلى المقاطع . فإذا بلغ البيت السمط من المقطع وهو المتجانس فى قافيته مع المركز اشترك الحضور جميعا فى الغناء .

وعلى هذا يتميز الزجل قبل كل شئ بتكرار قافية واحدة فى آخر كل مقطع . وهو نوع أدبى نشأ من تلقاء نفسه فى أسبانيا (نشأة عصامية) . ويفسر العالم الرومانى المشهور الأستاذ م . ر . مينندیز بيدال نشأة هذا النوع فى الجزيرة الإيبيرية فى العصر

الوسيط وانتشاره العجيب فى الشرق تفسيرا شديد الطرافة : فهو يرى أن الزجل إنما هو حلقة الاتصال التى تصل بين الموسيقى الإيبرية الكلاسيكية القديمة والموسيقى الأسبانية الحديثة ؛ فراقصات الأندلس اليوم حين يضربن بالصاجات فيرسلن مع الرياح الأربع أناشيد إشبيلية ومالقة ورنده وغيرها : لسن فيما نرى ، هكذا يقول مينديز بيدال ، «إلا سليلات بنات قادس أو العذارى القادسيات puellae Caditanae اللاتى كن يرقصن ، كما يقول چوڤينال ؛ فيهززن قضب crotales البرنز ويعززن شهرة الأغانى الأندلسية الساحرة وأغانى قادس Cantica Gaditana ، فيحملنها إلى رومة صاحبة تيتس وتراجان ، فلا ينفك شباب رومة المغرم بالجدة والطرافة عن ترديدها » .

وانتقل هذا الزجل القديم إلى أسبانيا المسيحية ، لا شك فى ذلك . ولكنه تأخر فى الانتقال إليها . واتخذ حينئذ شكل نتاج أدبى قشتالى اللغة . فنجد من الزجل القشتالى (فى أغانى كنسيونيرو دى باينا) ما يطابق فى تكوينه تكوين الزجل العربى . ونحن نعلم أن هذه المجموعة من الأغانى لا ترتفع إلى أكثر من القرن الرابع عشر . ونجد كذلك فى اللغة القشتالية مرادفات للاصطلاحات المعينة لأجزاء الزجل قد انتقلت إليها . فالمركز الممهد للمعنى يسمى استريباو estribillo ؛ والأغصان أو الثلاثة الأبيات الأولى من المقطع تسمى المودنزا mudanza ؛ والسمط الذى تتكرر فيه قافية المركز يسمى الڤولتا vuelta .

ولننتقل الآن إلى الشعر الغنائى اللنجدوكى والبروڤنسالى لنتبين هل تأثر هذا الشعر من حيث تكوين أجزائه بغيره أم لم يتأثر .

كان المستشرق الأسبانى ج . ريبرا أول من أذاع منذ سنة ١٩١٢ رأيه فى ذلك، فقد لاحظ التوافق فى أبنية المقاطع وفى القافية المتكررة فى أواخرها ، وقال إن التوافق الملحوظ بين الآثار المبتكرة من الشعر الشعبى العربى الأندلسى وبين أغانى التروبادور فى أكيتانيا وپروڤنس فى العصر الوسيط لا يمكن أن يفسر على أنه محض مصادفة ..

وقد حاول ريبرا فى بحث نشره حينئذ أن يثبت أولا أنه كان يوجد فى أسبانيا الإسلامية إلى جانب اللغة العربية لغة عامية رومانية يتحدث بها قسم كبير من أهل الريف والمدن . وقد حاول كذلك أن يستقصى من المصادر العربية ومن المصادر

التاريخية خاصة آثار قيام شعر من شعر الملاحم إلى جانب الشعر الغنائى الوصفى المعروف فى الأدب الأندلسى الكلاسيكى المجدد . وقد أداه استقصاؤه إلى القطع بأنه كان يوجد شعر ملاحم أندلسى شعبى ، ولكنه ضاع كله . وانتقل ريبرا من ذلك إلى دراسة المؤثرات المتبادلة بين شعر الملاحم الفرنسى وشعر الملاحم القشتالى . وذهب إلى رأى جرىء واضح : وهو أن « النظام الشعرى الغنائى الذى ابتدعه كفيف قبرة والذى شهره بعد ابن قزمان بعبقريته ، هو المفتاح السرى الذى يفسر مقومات الأشكال الشعرية فى النظم الشعرية الغنائية التى عرفها العالم الوسيط المتحضر »

ولريبرا دراسات أحدث من السابقة خاصة بنص أناشيد القديسة مريم Cantigas de Santa Maria وموسيقاها ، وخاصة « بأغانى التروبادور والتروڤير والمينسنجر.[1] وقد حاول ريبرا فيها أن يبرهن على أن الأشكال العروضية الأندلسية قد سلكت نفس الطريق الذى سلكته سائر الأشكال الأدبية الكلاسيكية التى انتقلت من اليونان إلى رومة دون انقطاع ، ومن رومة إلى الروم وإلى الفرس وإلى بغداد وإلى أسبانيا ثم من أسبانيا إلى أوربا .

وقد ظهرت فى هذه السنين الأخيرة عدة أبحاث فى نفس الموضوع فمال بعض العلماء المختصين إلى القول بسلامة الرأى القائل بأصل عربى مأخوذ عنه ، ورفض بعضهم الآخر هذا القول رفضا تاما . ومن أظهر الأولين اثنان من أصحاب العلوم الرومانية درسوا ديوان ابن قزمان دراسة تحليلية ليلتمسوا منه الحجج القاطعة بصحة رأيهم ، وهما العالم التشيكى ا . ر . نيكل والعالم الفنلندى ا . ج . تودليو . ثم انه قد ظهر منذ وقت قريب نسبيا كتاب جامع بين الطرافة وقوة الإيحاء عن التروبادور ألفهم . بريفو واعتنق فيه آراء نيكل وتالجرن ، ولكنه لم يأت فيه بحجج جديدة حقيقية قاطعة .

أما زعامة الرأى المضاد فإن أظهر من تولاها أولا العالم البرتغالى م . ردريج لاپا ، وهو الذى أظهر فى ١٩٢٩ كتابا عن نشأة الشعر الغنائى فى البرتغال ، وحاول أن يثبت ، عن طريق الاستشهاد بعدد من مقاطع ثلاثية ذات قافية واحدة فى شعر القرن الحادى عشر اللاتينى : أن التشكيلات العروضية الزجلية كانت معروفة فى أوربا

(١) — minnesinger هو الشاعر الشعبى فى اللغة الألمانية وهو يقابل لفظ التروبادور

قبل ظهور الشاعر القرطبي ابن قزمان بزمن طويل . ثم جاء بعد ذلك أعظم عالمين فى الدراسات البروفنسية فى العصر الحاضر : وهما العالم الألمانى آبل والفرنسى چانروا ، فقالا إن نظرية التأثير العربى نظرية لا ترفض رفضا تاما إلا أنهما يعتقدان أنها ليست سليمة بالشكل الذى عرضت به إلى الآن . وذهبا هما أيضا إلى أن شعر التروبادور يتصل اتصالا ظاهراً ببعض الآثار ذات القافية الواحدة من الشعر اللاتينى الوسيط .
ومن الدراسات العظيمة القوة فى الموضوع : دراسة فيلولوجى أسبانى عظيم هو رامون ميننديز پيدال المسماة «الشعر العربى والشعر الأوربى » Poesia Arabe et poesia europea عام ١٩٤١ ، وقد بسط فيها رأيا مضادا لرأى آبل وچانروا . وقد استقصى أمثلة لا من لغة لنجدوك ولكن من شعر جاليسيا ومن كتاب مشهور للأسقف دى هيتا اسمه كتاب الحب الطاهر Livre de Bon Amour

ولا ينكر ر . ميننديز پيدال يقينه بأن الزجل العربى الأسبانى كان له من الذيوع السريع فى الغرب الأوربى مثل ما كان له من ذلك فى الشرق العربى . والدليل على ذلك عنده أن جيوم التاسع دوق أكيتانيا وهو أول شاعر غنائى عرف بالكتابة بالعامية اللاتينية المجددة قد اصطنع بالذات شكل الزجل العروضى . لكن أصحاب العلوم البروفنسية يحاربون هذا الرأى للسبب الآتى : وهو أن جيوم ومن سار على طريقته من قدماء التروبادور ، الناطقين بلغة لنجدوك مثل چفرى رودل وماركبرو وپيير ڤيدال وسير كامون وپيير كاردينال ، قد اصطنعوا تشكيلات من المقاطع ذات ثلاثة أبيات هى أغصان ورابع ذى قافية مكررة . ولكنهم يهملون اصطناع الأبيات المقدمة المسماة بالمركز أو الاستريبلو ، مع أن استعمال المركز أمر ضرورى فى الشعر العربى الأسبانى . ولنضرب مثلا يوضح الفكرة ؛ وهو أغنية جيوم التاسع المشهورة التى تحمل رقم ١١ فى ديوانه والتى تبدأ كما يأتى [١] :

« مادام فى قدرتى أن أغنى ، فسأؤلف غناء عن شجونى أنا العاشق : لن تصلنى بحبيبة طاعة قط بعد الآن ، لا فى أرض پواتو ولا فى أرض ليموزان » .

وتتضمن هذه الأغنية عشرة مقاطع مؤلفة من أبيات ملتزمة قافية واحدة ، إلا قافية الأبيات الأخيرة من المقاطع فهى قافية مكررة ، وهى قافية I فى كل

---

(١) انظر نصها الأصلى فى الأصل الفرنسى الذى ترجمنا عنه

القصيدة . وليس فيها بيتا المركز الملتزمان قافية واحدة . ولا يعد الأستاذ ر . مينديز بيدال ذلك حجة قاطعة تؤيد القائلين بالأخذ عن العرب . ويحاول هذا العالم الأسبانى تفسير نقص المركز هذا ويبرره باستدلالات يجب أن أعترف بأنى لا أجدها مقنعة إقناعا تاما . فهو يرى أن الـ refrain وهو بيت الرد أو المذهب قد ضاع من الشعر البروفنسى لأن هذا الشعر ليس كشعر الزجل الأندلسى يلقى مصحوبا بفرقة موسيقية ، لكنه شعر بلاط ينشده تروبادور تصحبه آلة واحدة . ويسمعه شهود معدودون : هم السيد والسيدة وبعض خاصتهم وأتباعهم ؛ ولم يكن عليهم أن ينشدوا بيت الرد (المذهب) .

ومهما يكن من شىء فإن التوافق بين الأشكال العروضية أمر لم نطمئن بعد إلى تفسيره . ويقل الاطمئنان إذا ذكرت أنه لم يكد يمر قرن على ظهور التروبادور البروفنسيون الأوائل حتى أزهر فى أوروبا الغربية وفى فرنسا نفسها شعر فكه وأزجال وأغان راقصة ، وظهر فيها نظام المقاطع الزجلى مع بيت الرد . وبعض هذه الأغانى الراقصة يرجع إلى القرن الثانى عشر ؛ ولكن أكثرها يرجع إلى القرن الثالث عشر . من ذلك أغنية «أليس الحلوة» أو أغنية «لعبة روبان وماريون» لصاحبها آدم دى لاهال .

وقد قدر لهذه المقاطع العروضية الموريسكية أن تكون ذات ذيوع كبير فى أسبانيا نفسها ، وأن تظهر فى شعر البلاط والشعر الشعبى ، وأن تظهر كذلك فى خمس وثلاثين وثلثمائة من أربعمائة من الآثار التى يتألف منها ديوان أغانى ألفونس العاشر ، وأن تكون المقاطع العروضية المفضلة فى أغان كثيرة جمعت فى ديوان حول ١٥٢٠ باسم الكنسيونيرو الموسيقى .

هذا هو وضع مسألة الأخذ عن العرب فى الشكل التشريحى إن صح هذا التعبير . ولو فرضنا أن التشابه بين الأدبين الشعريين من ناحية شكل بنائهما أمر لم يستقر استقرارا تاما ، فإن ذلك لا يمنع فى شىء من قيام شبه قرابة لا ينكرها إنكارا تاما إلا متعسف ؛ وأنا أعترف بأنى أميل إلى جعل هذه القرابة حقيقة لا جدال فيها ؛ ومن هنا كنت أشد استجابة إلى الاستدلال بالحجج التاريخية واتفاق المعانى منى إلى الحجج الفيلولوجية . ولهذا أريد أن أوجه النظر إلى هذه المعانى المتقابلة بالذات وإلى هذه الحجج التاريخية .

وقد لا يخلو من نفع أن نمهد لذلك بإبراز ناحية من نواحى المشكلة أعتقد أنها لم تبرز ، ولم توضح ، ولم يحلها بطبيعة الحال علماء اللغة الرومانية الذين تعرضوا لبحث الشعر الشعبى الأسبانى العربى : هذه الناحية هى أن هذا الشعر الشعبى ، شأنه شأن شعر التروبادور فى عصره الأول ، لم يكن ، كما يميل كثير من الناس إلى تصوره ، شعرا متجها إلى تمجيد الحب العذرى . والحب العذرى هو المتسامى بالروح أو هو الافلاطونى . وهو يقابل ما كان يسميه عرب الأندلس بحب المروة مقابلة دقيقة . ولا أزال أزداد يقينا بأن تمجيد الحب المتسامى بالروح الذى امتازت به الآثار الشعرية فى العصر الوسيط انما أخذته أوربا عن أسبانيا الإسلامية . وقد أشرت إلى كتاب طريف للعالم الأندلسى ابن حزم (وهو من رجال القرن الحادى عشر) يسمى «طوق الحمامة» وهو يعالج مسألة الحب والمحبين . وقد كتب فى ١٠٢٢ ، ويصوغ صاحبه فى صفحاته نظرية فى المثالية الغرامية منطبقة انطباقا دقيقا على ما يمكننا أن نستخلصه من دراسة المعانى الغزلية عند بعض التروڤير دراسة مقارنة . ولكن الشعر الزجلى وشعر التروبادور فى أكيتانيا وپروڤنس إلى جانب إشادته بحب المروة يشيد كذلك بالحب الحسى الخالص فى كثير من الأحيان : فإن بعض أزجال ابن قزمان بالذات تكاد تكون غير قابلة للترجمة فى لغة شريفة ؛ وهى أزجال لها ما يقابلها مقابلة دقيقة مثل شعر التروبادور ماركابرو وغيره ، هو شعر ذو صبغة واقعية . وإن وجود هذين الميلين فى المعانى الشعرية فى كلتا ناحيتى جبال البرانس ليعتبر بذاته حجة لا يستهان بها تدعم نظرية القرابة بين الأدبين الشعريين .

وحب المروة ، كما يحلله ابن حزم فى كتابه تحليلا لطيفا دقيقا ، وكما يتغنى به فى الشعر العربى الشعراء الكلاسيكيون والشعبيون فى قصائدهم وموشحاتهم وأزجالهم : يطابق فى صورته شعر التروبادور ؛ ففى كلا الأدبين الشعريين يقاسى المحب من التقلب والهجر وخيبة الأمل على نفس الصورة . ففى أغانى جيوم التاسع وماركابرو مثلا يرد ذكر « الجردادور » أى حارس المرأة المدسوس عليها من قبل الزوج أو من قبل المنافس . ويوجد مثل ذلك فى الشعر الأندلسى العربى . ففيه شخصية مشابهة هى شخصية الرقيب ، وهو على أى حال شخصية لم يخترعها العصر الوسيط : فإنا نعلم أن پلوت وأوڤيد فى الأدب اللاتينى يشيران إلى شخصية الـ Odiosus custos puellae أو شخصية الـ vigil custos يعنى الرقيب . لكنا نستطيع أن نقول إن التروبادور

فى هجائهم الجردادور gardador لم يحيوا تقليدا دارسا من تقاليد العصر الكلاسيكى القديم . لأن كل شىء يحمل على الاعتقاد أن التروبادور قد استعاروا هذه الشخصية من الشعر الشعبى الأندلسى العربى .

ثم إن «الجردادور» الذى يذكر فى كلا الأدبين والذى يقوم بتعكير صفو المحبين ليس الشخصية الوحيدة . فإنا نجـــد فى الزمرة المحيطة بالمحبين عددا آخر من الشخصيات البغيضة : مثل الوشاة . وهم الذين يسعون للتفريق بين المتحابين ويسمون lauzengiers فى شعر التروبادور ، ومثل الحساد ويسمون enojos ومثل الزوج الغيور ويسمى gilos ، ومثل هذه الشخصيات موجودة فى الشعر العربى مثل النمام والحاسد والعاذل ، كما نرى فى بعض أزجال ابن قزمان .

وإحدى الشرائط اللازمة لتوفيق المحب فى نظرية حب المروة سواء فى أسبانيا الإسلامية أو فى فرنسا الجنوبية هى طاعته الصارمة للمحبوبة . ويدل ذلك على نوع من « العبودية الغرامية » صورتها الأديان بصورة واحدة متطابقة . وقد أخذت التقاليد الكنسية Disciplina clericalis المثل العربى القائل «إن المحب لمن يحب مطيع» فقالت qui amat obedit ولابن حزم تحليل نفسى لطيف للطاعة . ومثل ذلك معروف عند جيوم التاسع فإنه يسمى المحب بالطيع obedien ويسمى سلوكه حيال موضع حبه بالطاعة obediensa وثم شىء آخر طريف وهو أن المحب فى الشعر العربى حين يخاطب محبوبته يسميها عادة بسيدى ومولاى بالتذكير ، ولا يقول سيدتى ومولاتى بالتأنيث . ويجرى التروبادور على نفس العادة فيقولون midons ولا يقولون madonna .

ويجرى التروبادور والشعراء الزجالون على طريقة واحدة فى استغلال المعانى الغرامية ويستوحونها وحيا شديد التقارب . « فعبودية الحب » مثلا قد لا تجد جزاء أبدا ؛ ويعرف الشاعر ذلك فيسخط أو يلتمس العزاء . ثم إن التعذيب الذى يقع به من جراء الحب الذى لم يصادف وصلا قد يهىء له فى بعض الحالات نوعا من اللذة . وهو مقارب لما عرف بعد باسم délectation morose أى لذة السأم . ويسمى التروبادور هذا التفانى فى الحب عادة باللذة joya . ومثل ذلك تماما معروف فى الشعر الشعبى العربى باسم الطرب. وقد ذهب البعض — وأنا حريص على مخالفتهم — إلى التقريب بين لفظ الطرب العربى وبين لفظ تروبادور ، الذى لم يعرف له فيما نعلم أى اشتقاق مقنع .

*
* *

وننتقل الآن إلى القسم الثالث والأخير من كلامنا . فنقول إنه إذا كان شعر قدماء التروبادور الغنائى قد أخذ حقيقة عن الشعر الشعبى الأسبانى المماثل ، كما ينبئ بذلك تقارب الآثار الشعرية فى أجزائها وتشابه المعانى المطروقة تشابها يكاد يكون تاما ؛ فكيف نفسر هذا الأخذ ؟ وكيف نفسر بصفة خاصة أن الأخذ لم يتبع الطريق الذى كان يجب أن نتوقع على حسب الظواهر العادية ؟ وأنه لم يظهر أولا فى أسبانيا المسيحية فى تلك الناحية من جبال البرانس القريبة من قرطبة وغيرها من مدائن الإسلام الكبرى الأندلسية ؟ وكيف كان الواقع عكس ذلك فكان أول ما ازدهر الأدب الزجلى الرومانى فى فرنسا الجنوبية ؟

لا تعدم هذه الظاهرة الشاذة تعليلات ممكنة . فإن أقدم التروبادور الفرنسيين ، يعنى جيوم التاسع الأكيتانى ، لم يكن كما تعلمون رجلا جوالا فى الآفاق كما تمثل عادة التروبادور الآخرين . ونحن نتصورهم شعراء متنقلين يلتمسون رعاة الأدب موطنين النفس على إنشاد المدح لمن يضيفهم يوما أو مقابل قطع من فضة أو ثياب أو طعام دسم ، كما يفعل أمثالهم من المسامين . وإنما كان جيوم شريفا ذا نسب رفيع وأميرا على إمارة واسعة غنية مزدهرة ؛ وهو من غير شك أول من أخذ على عاتقه اقتباس أشكال الشعر الغنائى الأسبانى العربى ومعانيه . وأنا مقتنع اقتناعا يكاد يكون مطلقا أن جيوم التاسع كان يعرف العربية وإن كان ذلك يبدو أمرا شاذا . ومن الآثار النادرة التى بقيت من آثار هذا الشاعر (وهى أغان معدودة) أغنية ؛ هى الأغنية الخامسة ، يقص فيها الشاعر فى مداعبة طريفة لقاءه سيدتين هما إنيس واروييسند فى أثناء رحلة من رحلاته ، خاطبهما فيها بلهجته الليموزينية الشعبية ثم انتقل فجأة دون تمهيد إلى خطابهما ببيتين لم يعتبرهما كل العلماء إلا خلطا من الكلام . لكن هذا الخلط ليس فيما أرى ، مع احترامى لرأى الآخرين ، إلا كلاما فى لغة عربية أسبانية ؛ وفى هذين البيتين يوبخ الشاعر إحدى صاحبتيه فى لفظ فيه شىء كثير من القسوة على بعض طيشها الماضى .

ولهذا الاكتشاف كما ترون شىء كثير من الأهمية ؛ ويؤيده أن جيوم التاسع كان يعرف ما هى أرض الإسلام . فنحن نعلم مثلا أنه اشترك (فى ١١٠١ - ١١٠٢ م) فى حملة صليبية فى الشرق ، وأنه أقام فى الشام إقامة على شىء من الطول . ولا ندرى أبداً

معرفته العربية منذئذ فعرف بعض مبادئها ، أو أنه سمع فى الشام بعض الأزجال الأندلسية فتأثر بها . وأنتم تذكرون أن ذيوعها منذ البدء كان عظيماً فى الشرق وفى الغرب على حد سواء . وليس من السهل أن نجزم بشىء فى ذلك . ولكنا نعلم أيضا أن جيوم التاسع سار فى أثناء حياته إلى أرجونة ممدا ملكها ألفونس المجاهد فى وقت معركة كوتندا فى ١١٠٢ م.

إن من الصعب أن نسترسل فى هذه الافتراضات . لكن الأمر الذى لاشك فيه أنه منذ السنين الأخيرة من القرن الحادى عشر نشأ تيار علاقات مباشرة واتصالات وثيقة إلى حد كبير بين فرنسا وأسبانيا المسيحية . فلما ابتدأت حركة التحرر الأسبانية وآتت أول ثمارها بأخذ طليطلة عام ١٠٨٥ م على يد الملك ليون السادس القشتالى استقدم هذا الملك إلى عاصمته الجديدة عددا وفيرا من الرهبان الفرنسيين . وتزوج فى نفس الوقت من الملكة كنستانس وهى أخت شقيقة لجيوم التاسع بعد وفاة زوجها دوق برجونى . ثم إن أسبانيا أيام ألفونس السادس أخذت من نظام كلونى الرهبانى جزءا كبيرا من رجاله الكنسيين . وبدأت من ذلك الوقت بين طايطلة وبرجونيا عن طريق تولوز وپواتييه حركة ذهاب وإياب متصلة قامت بها بعثات رجال الدين وقوافل التجار . ونحن نعلم أن طليطلة كانت فى هذا العصر من آصل المدن فى التقاليد الأسبانية العربية ، ولا شك أن علاقاتها المتصلة بطلوشة وأديرة كالونى هى المفتاح الذى يفسر سر الأخذ . ثم إن جيوم التاسع نفسه تزوج أسبانية هى ابنة رامبرو الراهب ملك ارجونه . ولا ننس أيضا أنه منذ هذا العصر البعيد كان الحج إلى حرم القديس حنا الكمپستلى فى نظر كثير من المسيحيين الساكنين وراء البرانس يضاهى الحج إلى رومة . ونحن نعلم أن جيوم التاسع نفسه لقى الموت فى حادثة وقعت بالحرم الأسبانى المشهور يوم الجمعة المقدسة من عام ١١٣٧ م .

ولابد من كلمة كذلك عن حملة برباسترو الصليبية (بربشتر) . فقدكان لها صدى عظيم بين المسيحيين والمسلمين . ولقد سبقت هذه الحملة الأسبانية الحملات الصايبية الأولى التى شنت على الشرق بعدة سنين . فعبر البرانس جيش مؤلف من النورمنديين والأشراف الفرنسيين عام ١٠٤٦ م . وأخذ حصن بربشتر الإسلامى عنوة وهو حصن يقع على حدود مملكة أرجونه . وكان أحد كبار الرؤساء فى هذه الحملة جيوم الثامن دوق أكيتانيا ، وهو بالذات والد التروبادور جيوم التاسع . وعاد الجيش الفرنسى النورمندى بعد أن اقتاد من بارباسترو عددا عظيما من الأسرى رجالا ونساء . ويذكر المؤرخ الأندلسى ابن حيان أن سبعة آلاف من هؤلاء أرسلوا إلى قسطنطينية ، وأن مبعوث البابا وكانت

له رياسة الحملة خصه خمسماية وألف أسير . وكان ذلك لطمة أصابت الإسلام لم يمحها إلا استرداد المدينة نفسها فى السنة التالية . ثم وقع الفداء وتبودلت الأسرى ؛ لكنا نستطيع أن نفترض أن كثيرا منهم بقى فى فرنسا نفسها ، وأن هؤلاء الأسرى كان لهم أثر محقق فى الأوساط الاجتماعية التى ألقتهم فيها مصائرهم .

ونستطيع بوجه عام أن نعتبر أن العلاقات التى جاز وقوعها بين الشعر الشعبى الأسبانى العربى وشعر التروبادور القدماء لا تزال فى حاجة إلى برهان دقيق حاسم ، ولا تزال من أجل ذلك بمنزلة الفروض ؛ إلا أنها فروض شديدة الرجحان . وأريد اختتام هذه المحاضرة بالقول بأن هذه العلاقات ليست إلا جانبا من الجوانب الطريفة الأخاذة للتداخل الثقافى الذى لا شك فيه بين الثقافة الأسبانية العباسية وبين المسيحية الغربية ابتداء من القرن الحادى عشر . فإذا صرفنا النظر عن علاقات الحياة العقلية المحضة : فإن المسلّم به اليوم أن أسبانيا الإسلامية كانت تعد فى نظر أوروبا المحيطة بالبحر الأبيض موردا للحضارة اللطيفة والحياة المترفة الناعمة ، كما لو كانت معهدا فنيا للعادات الراقية والذوق الجميل . ولا ننس أن عددا كبيرا من الأقمشة الثمينة والحلى والتحف الصغيرة ، مما كانت تمتلئ به صناديق شريفات الجماعة الإقطاعية أول العصر الوسيط ، كانت كلها آتية من أسبانيا . وما كان لهذه الجماعة أن تحجم عن أن تأخذ من الحضارة الأسبانية العربيـــة شكل إنتاجها الشعرى ومعانيه وأن تنشئ على مثاله آثارها الشعرية وألا تتخذ ذلك بمثابة الحروف الهجائية من فنها الغنائى البادئ : مع أنها لم تحجم فى نفس الوقت عن أن تأخذ عن هذه الحضارة لباس الرأس والثياب ومصنوعات العاج والحلى ، ومع أن الخلافات السياسية الدينية التى كانت تفرق بين الإسلام والمسيحية لم تكن قط من القوة بحيث تقيم بين العالمين حاجزا أصم كثيفا ؟

المحاضرة الرابعـــة

غرناطة الإســـلامية والحمراء

لا شك أنه من قلة التبصر أن يقبل مؤرخ إسلامى القيام بالكلام أمامكم فى هذا الفصل من العام الذى تكثر فيه الأحاديث عن شتى الموضوعات فتتجاذب الجمهور الأعظم كثرة ليس من اليسير فى كثير من الأحيان إحصاؤها . ويشتد الحرج إذا اختار هذا المؤرخ موضوعا غريبا كل الغرابة عن دائرة بحثه الخاصة ، وانساق إلى ما وراء الحدود التى حددها له فى الزمان والمكان موضوع أبحاثه التى اعتادها كل يوم ، مع ما فى هذا الانسياق من استهداف كبير للمخاطرة . فاسمحوا له إذن أن يرجع بكم إلى الماضى السحيق ، إلى قلب العصر الوسيط ، إلى أسبانيا التى جعلها دائرة دراساته والتى ألفها بفضل مدد متطاولة أقامها بها ، وإلى العصر الذى كانت فيه مملكة إسلامية صغيرة : هى مملكة غرناطة ، المملكة الوحيدة التى استطاعت أن تثبت فى وسط شبه الجزيرة الإيبيرية المحررة ؛ وكانت هذه المملكة ، قبل زوالها النهائى كما زال غيرها بسبب هجمات التحرر المسيحى ، لا تزال شاهدا على قيام فن طريف وحضارة مستتمة .

واسمحوا لى أن أبدأ كلامى باستلهام صورتين : كان فى العالم الغربى الإسلامى فى العصر الوسيط مدينتان كبيرتان أشار العلماء عادة إلى صفاتهما المشتركة : أولاهما مدينة فاس العجيبة فى إفريقية الشمالية نفسها . وهى عاصمة لمراكش الشمالية . ولا تزال إلى اليوم تحتفظ بطابع القرن الرابع عشر . والأخرى مدينة غرناطة فى جنوب أسبانيا . وهى مدينة طالما ذكرها الشعراء والموسيقيون والمصورون . ووصفوا حبهم لها فى آثارهم . وفاس وغرناطة كلتاهما قد بلغت فى عصر واحد أكبر ما تبلغه المدائن الإسلامية من نمو ؛ وكلتاهما نافست الأخرى فى الغنى والترف والمعرفة . وكلتاهما كانت عاصمة لدولة مستقلة . وقد حدث أن تأثرت مصائرهما السياسية بأحداث واحدة . ولا يزال رحال العصر الحديث حين يزور إحداهما والأخرى يدهش دهشة لا مفر منها من التشابه العجيب بين مكانيهما ، ومن تطابقهما تطابقا لا يمكن أن يأتى من مجرد المصادفة أو من تشابه بيئتهما الجغرافية ومناخهما . وكلتاهما فى الواقع مدينة أنجاد مرتفعة مبنية على مسافة كبيرة من البحر عند مخرج إقليم

جبلى ، فى موقع يفيض فيه الماء فيهيئ هذه الأرض المرتفعة ارتفاعا نسبيا لزراعة الأشجار الكبيرة وأشجار البساتين. فتلتف أشجار الدردار orme والصفصاف saule واللوز فتتألف منها بساتين ، وتتخذ هذه البساتين طابع البحر الأبيض حين تنضاف إليها أشجار السرو cyprés والبرتقال . وكلتاهما تقوم بشكل متشابه على ضفتى واد ينصب انصبابا سريعا إلى فم سهل خصيب . وتسمى هذه السهول فى أسبانيا ڤيجا . ويكفى استغلال هذا الوادى وحده للقيام بالجزء الأهم من مؤنة هذه المدن . وكلتاهما تقع عند ملتقى طرق كبيرة . وهما لذلك سوقان عامرتان لنتاج الأرض وتربية الماشية . وقد لاحظ مارمول المؤرخ هذا التشابه منذ القرن السادس عشر ، فقال : « إن ملوك غرناطة حرصوا دائما على تقليد ملوك فاس ، فكانت مدائن بعضهم تشابه مدائن البعض الآخر فى موقعها ومظهرها ومبانيها وحكوماتها وغير ذلك » .

وتفاصيل هذا التشابه تستبين كذلك فى الجو الذى يشيع بطريقة واحدة فى أرجاء فاس وغرناطة ، وفى عناصر المنظر الذى يطالعنا حين ننظر إليهما من مكان عال مشرف عليهما .

ولا معدى لمن أطال التجوال فى هاتين المدينتين وتشبع ، إن صح هذا التعبير ، بصورتيهما وحركة أهلهما المستمرة من أن يلاحظ لأول وهلة هذا التشابه : فإن بين خضرة بساتينهما frondaisons ومياههما الجارية وشوارعهما المتعرجة التى تؤدى إلى مختلف أحيائهما ، بين هذا كله نسيم من القرابة لم يكد يخفى عليه مر القرون .

غير أن فاس ظلت بعد العصر الوسيط وفى العصر الحديث مدينة إسلامية ، على حين كفت غرناطة عن أن تكون إسلامية منذ أربعة قرون ، وكانت خليقة فى أثنائها أن تتغير صورتها تغييرا تاما ، كما تغيرت مدن أندلسية أخرى . فإن « الملكان الكاثوليكيان » وخلفاءهما قد زينوها شيئا فشيئا بعد تحريرها بآثار عظيمة جدا . ولو لم نذكر إلا أمهات الآثار الفنية المسيحية التى يستطيع الهاوى الإعجاب بها فى غرناطة لكانت شيئا كثيرا فمنها الكنيسة الكتدرائية والكنيسة الحرم التى دفن فيها فرديناند وإيزابلا . وهى من أجمل الشواهد المعمارية على آثار عهد الأحياء (أو النهضة) الإسبانى . ولكن غرناطة لا تزال قبل كل شىء غنية بماضيها الإسلامى . ولا يزال اسم عجيب مقترنا باسمها ، كلما جاء ذكرها ، وهو اسم الحمراء ، هذا القصر الحالم الذى يبدو وكأن أبطال رومنسيرو الموريسكى جاءوا ليسكنوا فى جوه ذى الطابع الرومانتيكى المفرط بعض الإفراط . وهو

القصر الذى ألهم عددا كبيرا من الكتاب والموسيقيين والشعراء منذ أكثر من مائة عام . وبفضل الحمراء أصبحت غرناطة من أكثر الأماكن شهرة فى العالم، ومن هذه الأماكن الممتازة القادرة على التحدث إلى الخيال قدرة لا يجاريها فيها غيرها ، ومن هذه الأماكن التى يطيب عادة ذكر أجزائها المتناسقة وزينتها الرقيقة . والحمراء من غير شك تمثل فى أذهان كثير من الناس، أكثر من سائر آثار الإسلام الغربى، النموذج الكامل والأثر الأم الذى لا يساويه أثر فى الفن الأسبانى المورسكى . فإن البساطة فى صنعه والإسراف فى استعمال الزخرفة الجصية المخرمة والإسراف فى الزينة النباتية والخطية أساليب ردّدها مقلدون كثيرون فى كل مكان — وإن كانت هذه التقليدات فى الغالب متوسطة القيمة . ومن المحقق مع ذلك أن الآثار المعاصرة من فن بنى مرين فى مراكش يمكن أن تقارن به فى كثير من الأحيان ، وقد تعد أحيانا أفضل منه تفضيلا تاما . وكل ما فى الأمر أنه لا يزال ينقصها ما كان للحمراء من حظ لا يعدله حظ : وهو اسم وشنطون إرڤنج الروائى ذى الحماسة الرائعة التى كشفته للعالم ، وهو أيضا قدرة مثل شاتوبريان على التعبير ، وهو أيضا قلم ماهر مثل قلم تيوفيل جوتييه . وفى ذلك للحمراء بهاء مقيم . وازداد هذا البهاء بفضل موسيقى عبقرى مثل م . دى فالا وشاعر مثل فردريك جرسيا لوركا ، أولهما بلحنه « ليال فى حدائق الأندلس » والآخر بـ « رمنسيرو چيتانو » ؛ فرفعته هذه الآثار إلى نوع من الآثار الربانية إن جاز ذلك فى القول .

* * *

وليس فى نيتى أن أقودكم فى جولة أثرية فى غرناطة الإسلامية إلى الحمراء . واسمحوا لى أن أبادر بإبعاد مثل هذه النية . ولكنى سأعرض عليكم بعد قليل بعض صورهما . وأريد إلى ذلك أن أذكر لكم بعض الدقائق التى لم أستطع جمعها إلا بكثير من الصبر لقلة الوثائق عن نوع الحياة التى كان يحياها أهل غرناطة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وعن حياة البلاط فى قصر الحمراء فى نفس الوقت . ولكن ذلك لن يكون إلا رسما تخطيطيا شديد التقصير عن الحقيقة بطبيعة الحال .

وقد يبدو من الغريب إلى حد كبير أن نصطدم بقلة الوثائق قلة حقيقية بالقياس إلى عصر قريب منا قربا نسبيا ، وأن تكون ثروتنا من المعلومات عن طريق الروايات المعاصرة ، الخاصة بقرطبة فى عهد الخلافة فى القرن العاشر مثلا ، أكبر من ثروتنا من المعلومات عن غرناطة فى عصر بنى نصر وهو عصر يسبق ببضع عشرات من السنين سنة

التَّحَرُّر : وهى سنة ١٤٩٢ المشهورة فى تاريخ الإنسانية ، لا لأنها كانت السنة التى اخترعت فيها الطباعة فحسب ولكن لأنها كانت السنة التى كشفت فيها أمريكا . ثم إن الشيء الذى قد يجوز أن يبدو إسرافا فى المبالغة يعتبر هنا الحقيقة الدقيقة : ذلك الشيء هو أن غرناطة الإسلامية لم تجد إلا مؤرخا واحدا وقد كان مؤرخا من طبقة عظيمة من غير شك ، ولكن الفترة التى تلت موته ، أى من قبيل آخر القرن الرابع عشر إلى عام ١٤٩٢ (وهو تاريخ أخذ « الملكين الكاثوليكيين » غرناطة) فترة لا نجد عنها وعما يخص حياة مملكة غرناطة الداخلية خاصة إلا مجرد فروض .

أما عن المدة التى أرخها هذا المؤرخ العربى وهو لسان الدين بن الخطيب فإننا نجد لديه معلومات دقيقة ، توفرت لها دقتها لأنه نفسه باعتباره وزير ملوك قصر الحمراء اشترك مدة طويلة اشتراكا فعليا فى حياة الدولة الغرناطية السياسية ، وذلك قبل أن يقال ويموت فى فاس موتة تراچيدية . ولدينا إلى ذلك سلسلة من الأوصاف متفقة فيما بينها لحظ الحسن إلى حد كبير كتبها منذ آخر القرن الخامس عشر أو أول القرن السادس عشر كتاب أسبان — مثل مارمول الذى ذكرت اسمه فى مناسبة خاصة ومثل برموديز دى بدرازا وهنريك دى چوركيرا [1] .

ولم تكن غرناطة كأكثر مدن الأندلس الإسلامية مدينة إيبرية قديمة ولا رومانية . ولكنها كانت على العكس من صميم التأسيس الإسلامى . أما المركز المدنى القديم فى العصر القديم والقرون الإسلامية الأولى فى هذا الإقليم فقد كان على مسافة قريبة إلى الشمال الغربى : وهو البيرة أو « إليبرى » Ilberri القديمة ، عند سفح الجبل الذى يسمى اليوم باسم سيرا ألبيرة . وقد ظلت البيرة زمنا طويلا عاصمة هذا الإقليم . وكانت عاصمة ريفية على كثير من الأهمية أيام خلفاء قرطبة . ولم يبق اليوم منها إلا خرائب . وتدل الحفائر التى أقيمت بها على إمكان القول بأن الآثار العربية التى شيدت بها قريبة قربا شديدا فى صبغتها وفى زينتها من آثار القرن العاشر الاسبانى أو بالأحرى من القرن العاشر القرطبى المتميز بآثاره العجيبة فى مدينة الزهراء . وابتدأ اضمحلال البيرة فى القرن الحادى عشر بعد سقوط الخلافة الأموية بقليل ، فى ظروف حددها اكتشاف حديث جدا هو اكتشاف مذكرات عبـــد الله ملك غرناطة من

(١) انظر دائرة المعارف الأسبانية إذا أردت مزيدا من التعريف .

(٢) ملك من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٤٨٣ هـ

بنى زيرى . كان هذا الاضمحلال فى العصر الذى قدم فيه المسلمون من بنى زيرى من تونس الحالية ودخلوا فى خدمة المنصور بن أبى عامر ، فتحينوا فرصة الحرب الداخلية التى كانت تمزق أسبانيا ، وأسسوا لأنفسهم إمارة مستقلة فى إقليم البيرة القديم ، ووقع اختيارهم على غرناطة فجعلوها عاصمتهم . فهاجر أهل البيرة جماعات إلى العاصمة الجديدة . ولم تكن هذه العاصمة حينئذ إلا قرية صغيرة واقعة على ضفتى واد شديد الانحدار اسمه حدره قريباً جدا من ملتقى هذا الوادى بنهر شينل . وكان أكثر سكانها من اليهود وكانوا يتعاطون خاصة صناعة استخراج الذهب عن طريق جمع الرمال الغنية بالذهب ، وهى الرمال التى يجرفها النهر . وبهؤلاء السكان الوافدين لم تلبث غرناطة — ولعل اسمها الرومانى العربى Granata جاءها من شبهها برمانة مشقوقة نصفين — أن اتخذت شكل مدينة حقيقية . وتغطت الضفتان المنحدرتان انحدارا سريعا نحو مجرى نهر دارو بأحياء المدينة . وزاد تيار الهجرة إلى المدينة الجديدة بفعل الظروف السياسية ، فجاء كثير من سكان المدائن الأندلسية الأخرى وأقاموا بها ليكونوا تحت حماية أمرائها من الأسرة البربرية الصغيرة :أسرة بنى زيرى . وقد قدر لهذه الأسرة أن تعمر قريبا من قرن قبل أن يطغى عليها المرابطون الذين قدموا من مراكش عام ١٠٩٠ على وجه التحديد . وكان أشهر أمرائها باديس . وكان لحكمه الطويل الأثر الأول فى تأسيس ازدهار غرناطة . وفى أيام بنى زيرى أقيم القصر الملكى على مرتفع مشرف على الحى المسمى اليوم حى البيازين . وتروى بعض الروايات المحلية أن هذا القصر كان يسمى بيت « الجالو » يعنى بيت دوارة الهواء . ولكنا نستطيع أن نقول إنه لم يكد يبقى من غرناطة القرن الحادى عشر الإسلامية إلا أثر من عقد قنطرة مقامة على نهر دارو اسمها قنطرة القاضى أقيمت عام ١٠٥٥ م . ثم إن معلوماتنا قليلة عما يمكن أن تكون البلدية قامت به فى غرناطة أيام سلطان أسرتى المرابطين والموحدين فى أسبانيا الإسلامية . أما المدينة الحالية فإن أساس تخطيطها ، وخاصة تخطيط الأحياء العليا منها ، لا يحمل إلا آثار العصر الذى سبق ضم المدينة إلى تاج الملكين الكاثوليكيين بقايل .

*
* *

أما تاريخ ملوك المسلمين الذين أقاموا فى قصر الحمراء إلى آخر القرن الخامس عشر فإنه يقع بين ١٢٣٥ و ١٤٩١ أى فى فترة امتدت قرنين من الزمان . ولا تفزعوا فليس فى عزمى أن أرسم معالمها الكثيرة المتشابهة رسما مفصلا ؛ ولكن اسمحوا لى أن اذكركم بالخطوط

الأساسية المميزة لهذه الفترة . ففى الوقت الذى بدأت تضمحل فيه قوة الموحدين فى أسبانيا انتهزت بعض الأسر فرصة الفتن الداخلية فأنشأت لنفسها إمارات صغيرة فى شرقى الجزيرة ، ومثل ذلك قد حدث فى القرون السابقة . وكان محمد بن الأحمر ، ونسبه يرتفع إلى أحد الصحابة ، [1] يترقب حينئذ الفرصة ويحرص على استغلال الحوادث لصالحه . ولم يلبث أن استطاع أن يضم إلى سلطانه عدة مدائن : هى جيان ووادى آش وباجة . وانتهى به الأمر أن استولى فى ١٢٣٨ على غرناطة ، فاتخذها عاصمة واختار لمقره برجا زيريا قائما على ضفة الدارو اليسرى ، فوق تل أرضه حمراء برتقالية شديدة الشبه بالأرض التى تكسو قبور آل مرين بلونها المألوف أو بلون الصدأ الأزرق فى فاس وفى رباط شالة وفى مراكش . وكان هذا الحصن يسمى منذ زمن طويل بالقلعة الحمراء ، أو بالحمراء دون تحديد آخر . وكان الناس ينطقونه طبقا لظاهرة صوتية مطردة ، فيضعون باء بين الميم والراء ويقولون الهمبرا . وقد أخضع محمد الأول كذلك لسلطانه مدنا بحرية هى المرية ومالقة . وحرص على أن لا يشغل بذلك عن التيقظ لمنافسيه من أمراء المسلمين ، فألجأ نفسه إلى البيت الملكى فى قشتالة ، واعترف بسيادة فرديناند الأول وألفونس العاشر . واستطاع مؤسس الأسرة النصرية فى هذه الظروف الشاذة أن يؤسس مملكته . ولم يمض إلا قليل حتى لم يبق ، بعد أخذ الجيوش المسيحية أشبيلية عام ١٢٤٨ ، إلا مملكة واحدة فى الجزيرة تحت إمرة أمير مسلم : هى مملكة غرناطة — يحيط بها البحر الأبيض من جبل طارق إلى المرية . ولم تكن هذه الإمارة الصغيرة تتجاوز إلى الداخل الكتلة الجبلية التى تقوم عليها مدينتا جيان ورندة .

وحرص خلفاء هذا السلطان النصرى الأول فى آخر القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر على اتباع سياسة انتهاز الفرص واحدا بعد واحد وعلى اتباع سياسة غير ثابتة ترسم اليوم بعد اليوم . فكان بعضهم يتقى أطماع أمراء قشتالة ، إذا تزايدت ، بالسعى إلى حلف ملوك بنى مرين فى مراكش . وكان بعضهم يفضلون إضعاف نفوذ بنى مرين إذا تزايد فى مملكتهم ، بالدخول فى أحلاف مجحفة ، فيقبلون العودة إلى دفع الإتاوة إلى الملك المسيحى .

---

(١) وهو سعد بن عبادة ، أنظر الحلة السيراء لابن الأبار . دوزى مادة محمد بن الأحمر .

وهكذا عبرت البحر إلى أسبانيا فى هذا العصر جيوش مراكش أكثر من مرة . واستولى أحدها ، عام ١٢٩٣ على طريف الواقعة على المضيق ، بعد أن غلب قائدها جوزمان ألبوينو ، وهو قائد استولت الأساطير على اسمه . وكان هذا التدخل الدائم تقريبا من قبل سلاطين فاس فى أمور مملكة غرناطة عنصرا سياسيا جديدا لم تسبق به العادة . فكان المراكشيون يأتون بحجة القيام بالجهاد على حدود أرض المشركين . وكانوا فى الحقيقة يسيئون فى كل وقت الى أحوال البلاد فوق ما كانت عليه من ارتباك شديد جدا . وبلغ بهم الأمر أن فرضوا على ملوك غرناطة اتخاذ جيش مراكشى حقيقى من الغزاة مقيم عندهم مؤلف من فرسان يراد إبعادهم أو من مخاطرين يجرون وراء المخاطرة ممن تكاد أرضهم تزهد فيهم . فكانت العلاقات السياسية بين فاس وغرناطة ، كما ترى ، ذات صبغة دائمة ، فأتاح ذلك فرصـــة فسيحة لا للعلاقات العقلية فحسب بل للعلاقات الفنية أيضا ، فتقارب أئمة الفنون وصبغوا الآثار والقصور فى البلدين بصبغة واحدة .

وكان من أظهر أمراء الأسرة النصرية خامسهم : اسماعيل ؛ فإنه استطاع فى زمن ما أن يُبلغ مملكة غرناطة حظا من التماسك لم تبلغه أيام أسلافه الأقربين . فاسترد من بنى مرين طريفا والجزيرة الخضراء ورندة ، وأوقع عام ١٣١٩ (فى أليكوم) هزيمة دامية بالقشتاليين . ولكن خاتمته كانت كخاتمة كثير من أمراء المغرب الإسلامى فى ذلك الوقت : وهى الموت بخنجر قاتل مأجور . لكن قشتالة استطاعت أن تعوض هزيمة ١٣١٩ بعد ذلك : إذ هزم ألفونس السادس فى ريو سلادو (أو الوادى الملح بالأسبانية) عام ١٣٤٠ جيوش فاس وغرناطة . ثم إن ألفونس منح أمير غرناطة المسلم هدنة عشر سنين مع إلزامه الإتاوة . وكانت هذه السنون العشر بالذات أجمل فترة فى التجميل المدنى بغرناطة : فبنى فيها الباب الكبير بالحمراء وقسم عظيم من القصر ، وأقيمت فى المدينة نفسها مدرسة عظيمة الاتساع . وينحصر كل تاريخ الأسرة بعد ذلك تقريبا فى المنازعات العائلية . أما علاقة سلاطين غرناطة بملوك قشتالة فكانت تسير سيرتها الماضية . وتاريخ هذه العلاقة ممتلئ بالغزوات القصيرة ذات الأهداف المحدودة تتبعها كل مرة هدنة . ولكن معالم السياسة القشتالية وهدفها الأخير كان قد بدأ يرتسم منذ ذلك الوقت : وهو الاستيلاء على غرناطة وتقويض السيادة الإسلامية على أرض الجزيرة الإيبرية تقويضا تاما . ولكن قرنا طويلا تقضى كله كاملا فى انتظار بلوغ هذه النهاية . ثم إن الحصون الحامية للثغور كانت فى أثناء ذلك تقع واحدا بعد واحد

فى أيدى المسيحيين . ومنذ ذلك الوقت أخذت أسرتان مسلمتان تقومان بدور هام إلى جانب بنى نصر فى المنازعات الداخلية التى تميزت بها الحياة السياسية وقتئذ : وهما أسرتا بنى الزغرى وبنى سراج المشهورتان . ولم يطل الوقت حتى تعاقبت الهزائم . ففى عام ١٤٨٢ أخذ ردريجو پونس دى ليون ودوق مدينة شذونة من بنى نصر جبل طارق ثم ارشذونة . وبعد ذلك بسنين ، حين قام فرديناند ملك أرجون وإيزابلا ملكة قشتالة ، اكتست الهجمات المسيحية مسحة من الاتساع والجد إلى حد لم يعرف من قبل . ولم يلبث أبو عبد الله محمد الحادى عشر ، وهو المعروف فى التاريخ باسم بوأبدل Boabdil ، أن أقر بهزيمته . ثم اضطلع بالمقاومة من أسرته أمير آخر عدة سنين . ولكن موقفه تحرج حين استضاق الحصار حول غرناطة فاضطر إلى ترك الكفاح . وسقطت حصون المقاومة الإسلامية واحدا بعد واحد بين أيدى المنتصرين وهى حصون لوشة ومالقة والمرية . ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى لم يعد لغرناطة من خيرة إلا أن تفاوض فى شروط التسليم وأن تفتح أبوابها للملكين الكاثوليكيين . وفى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ دخلت طلائع الجيش المسيحى المدينة ونصبت على الحمراء ، فى قمة برج ڤيلا ، راية القديس جاك إلى جانب صليب الجهاد الفضى . وكان فرديناند وإيزابلا وعدا المسلمين بالرعاية والحرص على احترام شروط التسليم ، وكان دخولها غرناطة فى هيئة رسمية يوم عيد « ظهور المسيح للملوك » . فسارا فى موكب جليل على حصانين إلى الجامع الكبير الذى تحول عند ذلك إلى كنيسة فسمعا فيه صلاة شكر رسمية messe d'actions de grâce ثم سارا إلى الحمراء مجتازين الباب الكبير حتى بلغا مجالس الملوك ، فجلسا فيها على حين كان منادى الجيش يصيح « غرناطة ! غرناطة ! فى يد ملكى قشتالة الماجدين ! » .

وقبل ذلك ببضعة أيام كان لقاء مشهود فى قرية أرميلا القريبة جدا من غرناطة بين الغالبين وبين الأمير الإسلامى المهزوم . فبلغ أبو عبد الله ارميلا مساء يتبعه جماعة صغيرة من الفرسان . وخف فرديناند وإيزابلا للقائه ، وقد ارتسم على وجه ابى عبد الله جلال صادق . وألقى أبو عبدالله كلمته فى صوت واضح ثم سلم مفاتيح عاصمته للملكين الكاثوليكيين .

وكان المنتصران قد أعدا له ضيعة صغيرة فى البشرات جنوبى غرناطة ، ولكن الأمير لم يدخلها إلا عابرا وتركها إلى مراكش يتبعه بعض خلصائه . وهناك لم يلبث أن قضى أيامه فى حالة مادية ضيقة ، وأنتم تذكرون جميعا الكلمة المأثورة المنسوبة لأمه ثريا ،

وكانت تصحبه فى منفاه ؛ فإنها حين رأت أبا عبد الله يندب حظه ويتلفت وراءه للمرة الأخيرة ليتزود بآخر نظرة من عاصمته المفقودة، قالت له فى شيء من القسوة :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال ذلك المكان يسمى إلى اليوم «زفرة المورسكى الأخيرة» " Ultimo Suspéro del Moro "

* * *

وإذا ذكرنا أيام مملكة غرناطة الأخيرة فلا مندوحة أن نذكر كذلك بعض قصائد محفوظة فى مجموعة الشعر الأسبانى المورسكى ، وأذنوا لى أن أروى لكم منها قصيدتين على الأقل ؛ فإن ذكرهما فى رأيى أبلغ من أى شيء فى تصوير بيئة غرناطة الإسلامية قبيل سقوطها ، وإليكم قطعة من قصيدة " Romance " عن الملك ابن الأحمر أعنى أبا عبد الله وعن الملك دون جوان :

— يا ابن الأحمر ، يا ابن الأحمر ، يا أيها المورسكى من أمة المور ، يوم ولدت قامت علامات كبيرة لمولدك : فكان النهر هادئا والبدر كاملا .

— والمورسكى إذا ولد فى مثل هذه العلامات لا ينبغى له أن يقول كذبا .

— لن أقول لك كذبا ياسيدى وإن كان فيه حياتى .

— اشكرك على ذلك ، يا ابن الأحمر ؛ فما هذه القصور البالغة الارتفاع التى تتألق :

— كان هذا الحمراء ياسيدى ، وكان الآخر الجامع ، وفى ذلك المكان المرتفع كانت القصور التى عكف عليها الصناع فجعلوها كالأعجوبة ، وكان المورسكى العامل فيها يتقاضى مائة دوبل فى اليوم يضيعها على نفسه إذا انقطع عن العمل ، أما هذه الأخرى فهى الأبراج القرمزية من قصر عظيم القدر . وهذه الأخرى حديقة جنة العريف ، وهى حديقة لا مثيل لها .

— عندئذ قال الملك دون جوان واصغوا يا سامعى إلى ما قال : « إذا كنت تريدين يا غرناطة أن أتخذك زوجة فأنا أعطيك قرطبة وأشبيلية ملكا ومهراً .

— ولكنى متزوجة أيها الملك دون جوان ، أنا متزوجة لا أرملة ، والمورسكى الذى اتخذنى كان يحبنى كما لو كنت كنزه » .

ثم أروى لكم أغنية مشهورة عن ضياع الحمة (أو الحامة[1]) " Alhama " وهى مدينة من مملكة غرناطة سقطت فى ٢٨ فبراير عام ١٤٨٢ ، فى أول آخر حرب شنها الملكين الكاثوليكيين على الممالك الإسلامية الصغيرة :—

كان الملك المورسكى يتجول فى مدينة غرناطة من باب البيرة إلى باب ڤيڤارّمبلا .

ياأسفا يامدينتى : ياحمة ! . وجاء النبأ أن الحمة سقطت ، فألقى بالكتب على الأرض وقتل الرسول . ياأسفا يامدينتى ! ياحمة ! — ونزل عن بغلته وقفز إلى حصانه. وسار الملك المورسكى إلى الحمراء مجتازاً بزقطين . ياأسفا يامدينتى : ياحمة ! . فلما بلغ الحمراء أمر بالنفخ فى الأبواق الفضية وضرب طبول الحرب ليستجيب المور فى غرناطة والڤيجا . ياأسفا يامدينتى : ياحمة ! . فسمع المور الأبواق والطبول وتجمعوا واحدا واحدا ، واثنين اثنين ، واصطفوا للحرب ياأسفا يامدينتى : ياحمة ! .

ثم تكلم مورسكى عجوز فقال : « لم تدعونا أيها الملك الطيب ؟ لم هذا النداء ؟ ياأسفـــا يامدينتى : ياحمة .

اعلموا يا أصحابى أنه وقع أمر محزن جديد : إن المسيحيين قد أخذوا منا الحمة عنوة بشجاعتهم . يا أسفا يامدينتى : ياحمة ! .

فتكلم فقير ذو لحية طويلة بيضاء « أيها الملك الطيب . إن ما صنع بك كان خيرا وهذا ما تستحقه . أيها الملك الطيب . يا أسفا يامدينتى : ياحمة ! . فقد قتلت بنى سراج وقد كانوا زهرة غرناطة وأنت الذى رحب بالآبقين من قرطبة المشهورة . ياأسفا يامدينتى ياحمة ! . فأنت تستحق لذلك أيها الملك عقابا مزدوجا ، فليصنع ملكك ولتصنع أنت أيضا ، ولتضع غرناطة . يا أسفا يامدينتى : ياحمة !

* * *

فإذا صرفنا النظر عن هذه الكوارث السياسية ، وعن التراخى الشديد فى الدفاع

---

(١) ضبط الإدريسى هذا الاسم بألف المد وبدونها وقد فضلنا حذفها على حين يفضل الأصل الفرنسى إثباتها (انظر صفة المغرب ... للإدريسى ط . ليدن ١٨٦٦) .

عن مملكة غرناطة الصغيرة هذه ، وعن هجوم الملكين الكاثوليكين عليها هجوما عنيدا إلى أن ظفروا بها ، وجدنا هذه المملكة تحيا حياة مادية رغدة طوال تاريخها الممتد قرنين ونصف قرن من الزمان ، ولدينا دلائل كثيرة على ذلك ، ونحن نعلم رغم ذلك أن أرضها لم تكن كلها فى مثل الخصب الذى اشتهر به بعض أوديتها والقسم الساحلى منها ، وكان أهم مدنها غير غرناطة مدينة المرية ؛ وقد كانت من قبل أهم مرفأ إسلامى على شواطئ القسم الغربى من البحر الأبيض ؛ ثم مالقة الشهيرة بفاكهتها وآنيتها المذهبة ؛ ثم جبل طارق والجزيرة الخضراء ؛ ثم مدينة فى قلب الجبل : وكانت حصنا طبيعيا اسمها رندة ، وقد رتبت المسالح فى كل مكان عند مفاتيح طرق المواصلات الهامة ، ولا يزال بعضها إلى اليوم قائما يمد قامته فى كبرياء فى سماء الأندلس . أما السكان فكانوا كثيرين على الجملة . ولكن كثافتهم كانت تختلف من مكان إلى مكان ، وكانوا ينتمون إلى شعوب شديدة الاختلاف : منهم أهل البلاد أو المولدون ، ومنهم البربر ، ومنهم أقلية من أصل عربى . ثم انهم انجمعوا شيئا فشيئا فى بوتقة الإسلام ، وانصهروا ، وخرج منهم جنس واحد على شىء من التجانس . ولكن كانت هذه الأمة مفتقرة دائما إلى الإحساس بشخصيتها . والراجح أن أقل شعور بالوطنية الحق لم ينشأ فى نفوسهم قط . وكانوا يتكلمون بطبيعة الحال لغة متأثرة بخواص اللغة العربية الأسبانية ، ولكن قسما كبيراً من رعايا بنى نصر من أهل الريف خاصة كانوا يتكلمون إلى جانب ذلك بلهجة رومانية ، فدخل فى لغة أهل غرناطة منذ القرن الرابع عشر ألفاظ أسبانية ، ففسدت فساداً شديداً ، ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك ، ولم تنج الأسبانية نفسها فى ذلك العصر من أخذ الشىء الكثير من اللغة العربية .

وظل الفلاحون فى مملكة غرناطة يصطنعون فى أعمال الفلاحة طرائق زراعية وشجرية شديدة القدم شديدة الإتقان ، وقامت التقاليد على صيانة هذه الطرائق فى كل القسم الجنوبى من أسبانيا وفى شمالها . أما طبقات أهل المدن فلم تكن تختلف عن مثيلاتها فى مدائن مراكش لذلك العهد : نفس الطبقات الاجتماعية الأرستقراطية والشعبية وطبقتا أهل السيف وأهل العلم من الفقهاء ورجال البلاط والقواد والولاة والجباة وجماعات أهل الحرف ، وقد كانت هذه الجماعات الصناعية تأوى إلى أحد الشوارع أو أحد الأسواق وتساهم هى وبعض الجماعات المسيحية واليهودية فى إحياء الرواج التجارى والاقتصادى فى المدينة .

ولم نجد عن غرناطة أيام بنى نصر كتبا من كتب رؤساء التجار القيمة ، كالتى وجدناها عن مالقة فى القرن الثالث عشر وعن اشبيلية فى القرن الثانى عشر ، ولكن كل شىء يحملنا على أن نعتقد أن حياة النقابات المهنية كانت تسير فى غرناطة سيرها فى مدائن أسبانيا الإسلامية الأخرى ، ولم يكن بها فقط تجار المواد الغذائية من جزارين وسماكين وخضريين وشوائين وقلائين وبياعى العجين المقلى مع الجبن والأصناف الجيدة من الأمعاء المحشوة ، بل كان بها أيضا محال أهل الحرف الذين يصنعون الآنية تحت أعين مبتاعيها — مثل تجار المصنوعات الحديدية ومثل تجار المصنوعات النحاسية وتجار «طقوم» الخيل وتجار السروج ، هذا عدا صناع الآنية وأهل الدباغة وكانوا ينزلون أطراف المدينة إتقاء لرائحة صنعتهم أو اختياراً للمكان الفسيح . وكانت السوق تعقد كل أسبوع خارج باب البيرة ، فتباع فيها الماشية الحية والخيل وبغال الأندلس القوية ذات الشعر اللامع والأحجال الدقيقة ، وقد كانت المطية المأثورة فى المناسبات الرسمية فى ذلك العصر . أما الجمال فكانت نادرة وإن وجدت من غير شك فى أسبانيا وخاصة فى الإقليم الساحلى ، ولكن الراجح أنها لم تستطع التأقلم فى هذه البلاد . أما المقابر فكانت تتخذ خارج المدن فى الأماكن المسطحة ، وتتخذ فيها كذلك الساحات الكبرى حيث تكون الاجتماعات العظيمة الفخامة للقاء الرسل أو لصلاة الجماعة فى الأعياد الإسلامية الثلاثة الكبرى السنوية ، وكان كل شىء فى غرناطة كما هو اليوم فى فاس. وإن ما سأعرضه عليكم من صور فاس الحالية ليصدق من غير شك على غرناطة فى القرن الرابع عشر مع فروق يسيرة فى الملبس فقط .

أما خطط غرناطة أيام بنى نصر فلم تدرس بعد دراسة تخطيطية تاريخية كما درست خطط قرطبة واشبيلية . وقد عالج هذه الدراسة فيما يخص تلك المدينة سيكو دى لوسينا دون كثير من الدقة العلمية . لكن هذه الدراسة قد تكون أجدى من مثيلاتها الخاصة بالمدن الأخرى . وذلك لكثرة ما فى متناول أيدينا من الأخبار المبعثرة فى طوايا الروايات المحلية وفى الوثائق التى كتبت بعد تمام التحرير مباشرة .

كانت غرناطة ، كسائر المدن الأسبانية المغربية فى العصر الوسيط ، عبارة عن مساحة متجمعة غاصة كلها تقريبا بالأبنية ومحاطة بسور فتحت فيه عدة أبواب لايزال كثير منها يحمل اليوم الأسماء التى كان يحملها فى العصر الإسلامى . وهذه المساحة تشمل ، إلى جانب الأحياء الظاهرة المتعلقة بمنحدرات وادى حدرة ، نواة مركزية منبسطة انبساطا

فسيحا فى القسم المنبسط من المكان، الذى هو صلب المدينة نفسها . وكانت الشوارع الضيقة فى هذه المدينة كالعادة تؤلف شبكة متقاربة الحلقات كالتى حول مسجد قرطبة الكبير، وكانت الأسواق كالعادة أيضا تقع كأسواق فاس اليوم بجوار دار العبادة الرئيسية . وكانت إحداها مخصصة لتجارة الأقمشة وأدوات الترف ، وهى سوق القيسارية . وكانت لاتزال منذ قرن كما كانت أو تكاد قبل أن تتهدم من أثر حريق وقع فى سنة ١٨٤٣ وكانت عبارة عن شوارع ضيقة مسقوفة فتحت فيها أبواب الدكاكين فى ظل بواك محمولة على أعمدة رخامية رشيقة. وبقرب السوق كان يقع باب هو باب الرملة، وقد احتفظ هذا المكان بهذا الاسم، فإنه لايزال يسمى بيبرملة . وكان هذا الباب يطل على الساحة المسماة بالرملة ، يعنى رملة نهر دارو . وهناك كثيرا ما قامت الأعياد الشعبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفيما بعد التحرير. وفى نفس الحى كانت تقع أيضا المدرسة النصرية .وكان رسمها رسم مدارس مراكش . وكانت تتوسطها ساحة " Patio "كثيرة الزينة الرخامية والجص المنقوش والفسيفساء والقاشانى الكثير الألوان ، ثم مصلى واسعة وغرف للدراسة . أما الطابق الأعلى فكان غرفا صغيرة لسكنى الطلبة . ويقع قرب المدرسة الفندق القديم . وهو لا يزال يزار إلى اليوم واسمه الآن كازا دل كربون . وكان سلاطين بنى نصر كسلاطين بنى مرين يبتنون فى مدينتهم أبنية كبيرة تتميز من خارجها بباب عال ذى زينة فنية تظله شرفة مسقفة بالقرميد الأخضر. وكانت مثل هذه الأبنية تتخذ لإيداع البضائع وتتخذ سوقا عامة للتجارة تتوسطها رحبة وتطل عليها من طبقات البناء العليا مساكن لأبناء السبيل .

ولا تزال أحياء كثيرة فى غرناطة تسمى بنفس أسمائها فى العهد النصرى . فى المدينة نفسها الزكاتن ثم الكازبا والشيرو والمورور والانتكواريلا . ولا بد من إفراد ربض البايسين بذكر خاص ، لأنه مثال فى نوعه ، ويسمى بالعربية ربض البيازين . وهو يشرف على نهر حدرة من الجهة المقابلة للحمراء . وقد كان هذا الربض فى العصر الإسلامى حى الفقراء . وكانت تتخلله هنا وهناك بيوت للتنزه ، تحيط بها حدائق من السرو والكروم (وتسمى بالأسبانية كارمن)، لم يراع فى ترتيبها إلا إدخال السرور على العين. ويشرف هذا الربض على المدينة نفسها وعلى الحمراء ، وترى منه قمم الثلج فى جبال السييرا ومناظر لا يخلو جلالها من سحر أخاذ .

*
* *

أما قصر الحمراء فكان فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر يؤلف مدينة حقيقية مستقلة إلى جانب غرناطة ، وكان مشرفا على أحيائها المنخفضة . كما كانت مدينة بنى مرين

الجديدة فى فاس بالقياس إلى مدينة فاس القديمة (المسماة اليوم فاس البالى) . وأقول كان قصر الحمراء مدينة ولا أقول مقرا للأمراء فقط. فقد كانت له الأسوار والأبراج الوسطى وأبراج الأسوار والأبواب الكبرى والأبواب السرية . وفى داخل ذلك كان يوجد إلى جانب القصر الأميرى أهم العناصر التى تتألف منها أى مدينة إسلامية مغربية: من مسجد جامع وأسواق وبيوت فخمة لوجوه الناس إلى بيوت متواضعة للعامة. وقد كان أمراء المسلمين فى العصر الوسيط يستطيبون عادة أن يقيموا، لا فى عواصمهم ذاتها ولكن قريبا منها وبمنأى عن إرجاف العامة. ويبتنون لذلك بناء خاصا بأسراتهم يستطيعون تجميله وتوسيعه بأنفسهم كلما أرادوا . ولهذا كانت الحمراء من عاصمة بنى نصر بمثابة ڤرسايل لا بمثابة اللوڤر من باريس. وكانت كذلك بمثابة سان دنيس، لأنها كانت تحوى مدفنا يسمى بالروضة، أودعت فيه رفات سلاطين الأسرة جميعا تقريبا . وفى داخل أسوار الحمراء نفسها كان يقع دير قديم يعرف باسم سان فرنسسكو، وكان خربا إلى عهد قريب ؛ حتى رممه العالم المهندس الأسبانى توريز بالباس ترميما مدهشا، وهو مهندس لا نستطيع أن نضرب عن ذكر اسمه ولا أن ننسى عبقريته ووفرة ذوقه؛ وقد كان من حسن المصادفات أننا اكتشفنا معا دقائق لا تحصى عن هذا العهد النصرى . وفى هذا الدير المتواضع البعيد عن كل أبهة متكلفة أوصت إيزابلا الكاثوليكية أن تدفن وقد نفذت وصيتها حين ماتت فى سنة ١٥٠٤. فاجتمع ثم الترف الباقى بعد موت المسلمين والبساطة ذات الصفة الرهبانية الخالصة من جهة أخرى . وهذه حقيقة تنبىء بمعان كثيرة عن الجنون الحقيقى بالترف الذى استولى على غرناطة بنى نصر فى نفس الوقت الذى كانت سنوهم بل أيامهم معدودة . ولعل قصر الحمراء أبرع دليل شاهد على استسلام المسلمين أمام المصير المحتوم؛ وهو دليل أيضا على تمسكهم التام بحياة الترف الزائلة بكل ما تستطيع أن تنتجه من متع جسدية خالصة . ولعلنا لا نجد مكانا خيرا من الحمراء لندرك فيه إدراكا تاما معنى قصيدة «ولك الساعة التى أنت فيها » "Carpediem" للشاعر اللاتينى هوراس .

يشغل الحمراء كل سطح هضبة مشرفة تنحدر حدودها فجأة من ناحية الشمال انحدارا شديدا حتى تبلغ نهر دارو ؛ وهى من جهة الجنوب منفصلة عن تلال موررور بواد عميق هو وادى الأسابقة . ويفصلها عن تلال جنة العريف القريبة مضيق عميق يسمى اليوم تل الملك الصغير "La Cuesta del Rey Chico" وأسهل طريق لبلوغ هضبة الحمراء: هو الطريق الآتى من المدينة صاعدا مع شارع شديد الصعود مجتازا بستانا فسيحا من شجر الدردار نسمع فى أرجائه خرير الماء الجارى، هو بستان المائدة . أما الجزء

المسور من القصر فإنه يتبع فى تخطيطه قمم الهضبة البارزة ثم قمم توريز برميجاس (أو الأبراج القرمزية) إلى مسافة أخرى نحو الجنوب . ثم يشمل هذ الجزء المسور كل مساحة الهضبة نفسها . ولكن القصر العربى وملحقاته لا يحتل إلا سدس الهضبة . وقد تهدم من هذا القصر أو بالأحرى من هذه الأبنية المتصلة التى يتألف منها القصر جزء كبير عام ١٥٢٦ ، حين زار شارلكان الحمراء مرة فأثارت إعجابه وحماسته فقرر أن يبنى هناك قصرا جديدا ، وقد وضع رسم هذا القصر بدرو ماشوكا وتأثر فى ذلك بالأساليب الإيطالية فى عهد النهضة ؛ ولكن القصر لم يتم قط ؛ ولا يزال غير مسقوف . أما ما بقى من قصر بنى نصر إلى جوار هذا القصر الكبير الناقص فإنه لا يزال يحتل إلى الآن مساحة كبيرة . وإنى لأحتاج إلى أكثر مما أملك من الوقت لو أردت أن أصف لكم عناصره المختلفة بشىء من التفصيل دون أن أرهقكم صبرا .

ولهذا أقتصر على أن أذكر أن القسم الأقدم من الحمراء هو الذى بنى فى أيام مؤسس الأسرة آخر القرن الثالث عشر ، ثم واصل خلفاؤه فى أول القرن التالى تشييده حتى أتموا بناءه . ثم جاء بعد ذلك السلطان محمد الخامس ، ويقع حكمه بين ١٣٥٤ و ١٣٩١ ؛ فرسم بنفسه بناء مجموعة جديدة كاملة ، تشتمل على مقر صيفى بناه حول « بلاط الريحان » وعلى مقر شتوى بناه حول ساحة الأسود . ودام العمل فى الحمراء إلى السنين الأولى من القرن الخامس عشر . ولم يحدث فيه ، إلى أن كان التحرير ، إلا ترميم أو تعديل . ولقد كان من الطبيعى فى بلد ذات جو قاس مثل غرناطة التى يشتد فيها الحر صيفا والبرد شتاء أن يبذل الأمراء عنايتهم لإنشاء منازل مختلفة لكل فصل . ثم إن طريقة الحياة الإسلامية التقليدية تقضى أن يشمل القصر وملحقاته دائما ، مهما يبلغ من الاتساع ، قسمين منفصلين تمام الانفصال : أحدهما كما تعلمون مخصص لسكن الأمير الخاص وحريمه . وثمت غير القصر نفسه أبراج عديدة من أبراج السور اتخذت فيها من الداخل مساكن خاصة مثل « برج الأسير » و « برج الأطفال » و « برج دمشق » كما اتخذت فيها قاعات تبلغ من الجمال حدا لا يخاف معه عليها أن تقارن بقاعات القصر نفسه .

وقد احتفظت بعض الروايات (مهما يقل أو يكثر حظها من الصحة) من وراء القرون العديدة بأسماء بعض قاعات الاستقبال أو بأسماء بعض الساحات التى تطل عليها القاعات . فإن صحت هذه الأسماء فإنها قد تدلنا بعض الدلالة على ما خصصت له هذه القاعات المعروفة الأسماء . فالمشور مثلا هو صالة التشاور التى كان يجتمع فيها وزراء بنى نصر .

وقاعة الوفود هى التى كانت مخصصة لاستقبالات السلطان الرسمية . وقاعة العدل وتسمى أيضا بقاعة الملك . وكان ثمت أيضا مسجد خاص للملك وأسرته . وكان يوجد غير بعيد من القصر مسجد عام . أما الأجنحة الخاصة فقد كانت زينتها لا تكاد تقل عن زينة قاعات الاستقبال فى تمام إتقانها ، وإن كانت أقل منها اتساعا وأكثر تصويرا للجو العائلى . وكذلك شأن بعض الحدائق الداخلية الصغيرة وبعض المناظر البارزة عن سمت ما تحتها مثل منظرة ميرادور دى لنداراجا المشهورة .

وسنعرض عليكم بعد لحظة بعض مناظر داخلية وخارجية من الحمراء لنذكركم بأكثر نواحى هذا المقر الملكى سحرا . وسترون ما فيها من وفرة فى الزينة الزهرية وفى النقش على الجص ، وما فيها من وفرة فى الزينة الخطية . فليس النقش فيها كما كان فى الآثار الإسلامية القديمة مرسوما من حروف الهجاء الكوفية ذات الزوايا الخالية من المرونة ، ولكنه مرسوم بحروف من النسخ المعلق والمدور تدويرا جميلا . أما الأفاريز المنقوشة فإنها تتخذ شكل عصائب ممتدة على الحافات أو محيطة بالأبواب والنوافذ . وتحوى هذه النقوش مدائح . ومنها خاصة رمز بنى نصر : « لا غالب إلا الله » ، ومنها آيات قرآنية ، ومنها خاصة أشعار أكثرها فى الغالب من شعر الشاعر القرطبى ابن زمرك ، قيلت على لسان القصر كأن القصر فيها يتغنى بمدح السلطان المؤسس ومجده . ومن أغرب هذه القصائد ما نقش منها حول طاقات صغيرة تتخذ عادة تحت باطن عقود الأبواب . وكانت تستعمل كما يدل على ذلك مضمون الأشعار لوضع أوعية الماء العذب ليرتوى منها الزائرون . وإليكم ترجمة بعضها فستجدون فيها دون عناء الأساوب المصطنع والعبارة الشديدة التكلف ، شأنها فى ذلك شأن الشعر العربى الكلاسيكى فى ذلك العهد .

— نمقتنى يد فنان صناع بعد أن رسم لى من الحلى تاجا .

— فصرت كعرش العروس بل أجمل لأنى أقدر على أن أمنح بركة الامتزاج .

— فإذا اقترب منى أحد يشكو عطشا لبيت وقدمت له شرابا عذبا حلوا سائغا .

— كأنى قوس قزح حين يظهر وكأن سيدى السلطان أبو الحجاج الشمس .

— فلتظل داره فى عناية الله ما حج إلى بيت الله حاج [1].

---

(١) لم يجد المترجم هذا النص الشعرى فترجمه عن الفرنسية .

*
* *

هذا القصر الفسيح بتلك الكثرة من الساحات والقاعات الرسمية كيف كانت تجرى فيه الحياة اليومية أيام أمراء مملكة غرناطة الإسلامية ؟ إننا إن لم نستطع تصوير هذه الحياة تصويرا دقيقا على ضوء الوثائق المعاصرة فإننا نستطيع أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه على أساس ما صارت إليه بعد ذلك ؛ وذلك أن حياة أى ملك إسلامى مع بلاطه الخاص فى المغرب فى العصر الوسيط لا تختلف فى صميمها اختلافا بينا عن حياة طبقة السراة ووجوه « المخزن » الذين كانوا يتخذون فى أيام بنى مرين ولا يزالون يتخذون إلى الآن القصور الباذخة . ونحن نستطيع أن نحصى فى فاس وحدها بضع عشرات من هذه البيوت الفسيحة وكأن كلا منها حمراء مصغرة ، بحدائقها الخاصة وساحاتها المزينة بفساقى الرخام المنقوش ومجموعات متصلة من قاعات مستطيلة ذات سقوف وفيرة الزينة وقباب دقيقة وجدران مغشاة بالرخام المنقوش ما تيسر النقش أو مغشاة بالفسيفساء والخزف فى تنسيق دقيق . وإذا صرفنا النظر عن قصور شريف مراكش نفسها فما القول فى القصور الحديثة جدا مثل قصر المنبهية برباط أو قصر الباشا فى مراكش ؟ إنا لنجد فيها نفس الرسم القديم لم يمس ، ونفس عناصر الزينة التقليدية لم تتغير منذ العصر الوسيط . ونجد فيها فى نفس الوقت عناية بأحدث وسائل الراحة من الإكثار من النور الكهربائى ومن أنابيب التدفئة الموضوعة وراء حواجز كبيرة من خشب المشربيات المخروط . ولكن هذه القصور، التى يكسو الجلال فيها كل شىء والاتساع كل شىء والبرد كل شىء ، تكون فى غالب الأحيان فارغة فراغا قبيحا . فإن أثاثها لا يزال يقتصر ، كما كان فى العصر الوسيط ، على أقل ما يمكن منه . ولا شك أن قاعات الحمراء لم تكن تفرش هى أيضا الا بالأرائك المستطيلة المنخفضة ؛ فلم يكن فيها مكان إلا لستائر الحرير والطنافس الثمينة — وإنه ليسهل علينا أن نتصور رب الدار وقد اضطجع كالناعس آخذا بأطراف حديث هادئ مع اثنين أو ثلاثة من خواصه . وقد يحدث أن يأمر فيتقدم عبد محلى بالحلى إلى عتبة الباب فيسر إليه فى أذنه بعض أوامر ليبلغها إلى الحريم . ويحدث فى أغلب الأحيان أن يقطع الحديث فيسود صمت لا يقطعه إلا خرير الماء الجارى . ويسود جو حالم يجوز أن يمتد إلى غير حد ، لا يتحرك أى واحد منهم ، وقد شخصت أبصارهم فى التأمل من غير وعى إلى طرف من أطراف الزينة ، أو امتدت من وراء فتحة النافذة العالية (الميرادور "Mirador") لتتأمل شجرة من السرو منعكسة على زرقة السماء . ومع ذلك فإنه من الطبيعى فى بعض المناسبات مثل الأعياد الثلاثة الدينية السنوية خاصة أن تقام الاستقبالات

فيتقدم من الزوار فى أى يوم من الأيام ما يكفى لعمران هذه القاعات المترفة . وهذه الأعياد والاستقبالات لم تكن قط من غير شك تجمع بين الرجال والنساء مهما قيل فى ذلك ، لأنه يبدو أن هذه البيئة الغرناطية ظلت حتى النهاية شديدة الاحترام للقواعد الإسلامية .

كذلك لم يكن برنامج هذه الأعياد مرتبا طبق بروتوكول دقيق كما قد يتبادر إلى الذهن . وكان الشعراء ينشدون فيها قصائد مناسبة للمقام فى مدح السلطان أو مدح آبائه . وكانت فرق الموسيقى تسمع أشهر ما فى مجموعة الموسيقى الأندلسية من الأغانى. ولكن تلك السهرات الموسيقية الزامرة (وكانت تسمى يومئذ " Zambra ") كانت تقام فى أغلب الأحيان فى حمى الحريم .

أما الحفلات العامة فلم تكن كثيرة قط . وكانت تقام بباب الرملة ، وتقام أحيانا فى ساحة داخل سور الحمراء تسمى التابلا "Tabla" وكانت تقام بها ضروب من « الكاروسيل » يعنى الرماحة أو صراع الثيران أو الكلاب المدربة يثيرها الفرسان بوخزها بأسنة رماحهم . ولكن ذلك كان متعا شعبية خالصة مخصصة للعامة تقدم لهم بمناسبة بعض الحوادث السعيدة التى تقع للأسرة المالكة من ميلاد أو زواج .

وها نحن أولاء بهذا التصوير بعيدون عن الصورة البراقة التى تكاد تعد صورة كلاسيكية، والتى تطالعنا فى الأوصاف الأدبية العريقة ، ولقد كان يحلو للناس فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يتصوروا الحمراء عامرة بشخصيات أسطورية من بنى سراج يلبسون ثيابا براقة ودروعا لامعة ، وعامرة بأميرات ذوات أسماء غريبة ساحرة . ففى سبيل ربات السحر أمثال سبلندا أو ماريانا كان مثل طرفه وجزول يواجه الموت كل يوم أو يستفز منافسا قديما للمبارزة فى ميدان ضيق مادام قد سعد بحمل الألوان الأثيرة عند ربة خواطره . لكن الحقيقة التاريخية تتبدى كعادتها بكل صرامتها غير حافلة باحترام الأساطير التقليدية العتيقة . فإن عرض ألعاب الخيل واللعب بالعصا والمواكب الفخمة التى تتهادى على صوت أبواق الحرب أمام المور من أهل غرناطة وقد تزينوا بزينتهم، كل ذلك لم يوجد إلا فى أذهان الشعراء التروڤير أيام التحرير ، وإلا لدى شعراء المجموعات الشعرية Romancero المغمورين ، وإلا لدى كتاب القرن الرابع عشر مثل بيريز دى هيتا . أما وثائق الماضى التى أسفى عليها الإهمالُ الترابَ فإنها لا تحدث لنا من كل ذلك ذكراً قط .

فإذا تحرينا الواقع ، تساءلنا هل للحقيقة التاريخية قيمة كبيرة حقا حين يتعلق الأمر بالحمراء ؟ أو ليس من القبيح بنا أن نبغى إحقاقها بأى ثمن ؟ أفلا يحسن أن نسلم بصحة هذه الأساطير الطريفة ، وأن نترك أسطورة قصر الحمراء التى استحوذت على أرجائه لتحيط بكم كاملة إذا جلستم فى شرفة فى البيازين أو جنة العريف ورأيتم فى شعاع الغروب ما كانت عليه قصور هؤلاء الأمراء المسلمين من فخامة وما كان عليه.هؤلاء الأمراء من تقلب وقلة اكتراث بالغد ، وما كانوا يكنونه من حب لمدينتهم وحدائقها وسمائها ؟

المحاضرة الخامسة

المدن والنظم المدنية فى المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط

(١)

اتجهت دراسة المدن ، فى المشرق الإسلامى ، إلى الناحية التاريخية والناحية الأثرية معا ، وتقدمت هذه الدراسة فى السنين الأخيرة تقدما ملموسا . وقد كان البحث فيها سهلا ، لأنها استفادت من بقاء كثير من الآثار سليما ، برغم عوادى الزمن ، ولأنها استفادت كذلك من الأوصاف المفصلة الكثيرة التى خلفهاالرحالون وأهل الأدب المسلمون فى العصر الوسيط والعصور الحديثة . وهى أوصاف لها أهميتها العظمى . وقد كان هؤلاء الرحالون والأدباء من خيرة الأخباريين فى الغالب ، فساقوا إلينا أخبارا على حظ عظيم من الدقة يسهل التثبت منها ، وساقوا إلينا إحصاءات عن المدن ، وذكروا الأسماء المختلفة لمعالمها . وهكذا صار تطور مدن كثيرة أمثال حلب ودمشق والقاهرة أمرا معروفا ، بفضل ما ظهر من أبحاث وضعت على أدق الطرق العلمية .

والأمر على خلاف ذلك للأسف بالنسبة إلى المغرب الإسلامى سواء فى المغرب نفسه أو فى الأندلس . فإن دراستها فى العصر الوسيط تتكشف عن سراب فيما عدا الدراسات الأثرية ؛ ذلك لأنها دراسة تعتمد فقط على مراجع غير مباشرة أو على أخبار مقتضبة عارضة يضفى عليها السياق العارض من الغموض أكثر مما يضفى عليها من الوضوح . فإذا أردنا رسم صورة كاملة لهذه المدن ، وتصوير حياتها ، أو على الأقل معالم تخطيطها ، وأسوارها ، وخططها . لم نظفر فى الأغلب إلا بفروض ولم نجد إلا قليلا ، أو لم نجد شيئا من وثائق الأرشيف ، وعزت علينا النقوش ولم نجد شيئا من الصور . وليس فى كل الأدب الجغرافى العربى ولا فى كل الأوصاف المسهبة التى كتبها الرحالون عن غرناطة أو قرطبة وصف تام كامل لمواطنها يمكن أن يترجم إلى تصميم واضح . ولست الوحيد ولا الأول الذى يسوق هذه الملاحظة المريرة : فقد قال صديقى وزميلى الفذ ، توريز بالباس ، فى تعليق متضمن فى أخباره الثمينة عن أسبانيا الإسلامية (وهى أخبار تظهر مرتين فى العام فى مجلة «الأندلس» ، وتتضمن إحصاءا جديدا لتراث المسلمين فى شبه الجزيرة) قال إنه يأمل أن يجئ يوم يتقشع فيه ضباب الأوصاف وإملالها — وهو ضباب

مخيم على تراث الماضى كله وعلى الأبحاث المستفيضة الجافة أيضا — فيتمخض عن صورة جلية واضحة تصور كل الجموع المختلفة والحياة المستفيضة التى امتلأت بها المدن الأسبانية الإسلامية الكبيرة فى عصورها الزاهرة .

ولست فى حاجة إلى أن أذكر أن حظ الأندلس من ذلك كان أقل من حظ مراكش ، فإن مراكش تعد فى العصر الوسيط امتدادا حقيقيا للأندلس من ناحية التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى . وذلك أن مر القرون لم يكد يؤثر فى مظهر المدن المراكشية وتطورها ، حتى لقد أصبح من الحقائق المألوفة الإشادة بانطباق وصف ليون الافريقى لمدينة فاس فى القرن الخامس عشر على شكلها الحالى . ولكن ماذا نعرف عن فاس فى عصر الموحدين وعنها فى عصر المرابطين وعنها فى عصر الأدارسة ؟ . . أو بلفظ آخر ماذا نعرف عن أمر هذه المدينة فى كل تاريخها السابق على عهد بنى مرين ؟ الواقع أننا لا نعرف إلا قليلا كأنه لا شىء . وفى وسعنا على أى حال أن نعتبر أن أغلب المدن المراكشية لم تغير قط مظهرها منذ آخر العصر الوسيط ما عدا مكناسة . والحادث الجديد الوحيد فى مصير هذه المدن إنما وقع ابتداء من السنين الأولى من القرن العشرين : وهو اتصالها بأوربا على الرغم من طول تحاشيها إياه ، هذا الحدث هو نهضتها ، واستعمال الآلات . وكان طبيعيا أن يؤدى هذا الاتصال إلى تغيير فى أسلوب الحياة المادية وفى توفير الراحة ، وأن ينشأ عن ذلك انقلاب فى الحياة الاقتصادية لم يحدث مثله فى قرون الركود والانعزال الخمسة التى سبقت القرن العشرين ، حتى لقد دعا الأمر فى بعض هذه المدن وخاصة فى مدينة فاس إلى التدخل ومنع تشويه منظرها الطريف اتلاف تشويها يذهب بالأصل إلى غير رجعة . ولولا أن حيل بين سراتها وبين استرسالهم إلى كل ما هو حديث لاستحدثوا فى أرجائها من طرفها إلى طرفها قطاعات كبيرة كما حدث للأسف فى القاهرة حين افتتح الشارع الكبير المؤدى إلى الجامعة الأزهرية . فلنغتبط ببقاء فاس لم يمسسها شىء ، ولكن إلى متى يتاح لنا ذلك؟ ونحن نرى كثيرا من سكانها يهجرون وسطها إلى أطرافها حيث الهواء أقل فسادا وحيث تستطيع السيارات الخاصة الوصول إلى أبواب المساكن.

وأنا أعتقد أنه يجب الأخذ برأى مارمول حين يقول إن فاس فى آخر العصر الوسيط كانت صورة صادقة جدا من غرناطة. من ذلك : التشابه فى موقعهما على ضفتى نهر من الأنهار وانحدار الضفاف انحدارا شديدا ، ومن ذلك وفرة النباتات والماء الجارى فيهما. ولا تزال هذه الصفات المشتركة تستبين لأول وهلة أمام من يشاهدهما. ولكنى غير مقتنع تمام

الاقتناع بأن التشابه ظل تاما فى آخر العصر الوسيط بين هاتين المدينتين الواقعتين على جانبى جبل طارق . ذلك أنه لم يقع فى أسبانيا منذ القرن الرابع عشر ما وقع فى مراكش من وقوف التطور المدنى وقوفا واضحا . وإنما وقع امتزاج حضارتين بينهما فروق محسوسة على الرغم مما بينهما من نقط اتصال عديدة . وواضح أن يؤدى هذا الامتزاج بعد انتهاء الإسلام فى أسبانيا إلى طبع مدن الريف الأندلسى الصغيرة بطابع خاص مبتكر : فبينما ترى موقعها نفسه إفريقيا فى الغالب وحوله النباتات العربية ، وبينما يبدو المنظر لأول وهلة إفريقيا صميما إذا بها فى الواقع تتكشف عن طابع خاص يخالف طابع المدن المراكشية . فلئن اشتد التشابه قربا فإنه ليس تاما . فهل كان الأمر كذلك من نقص فى التشابه فى العصر الوسيط ؟ الجواب أنى لا أرى ذلك أبدا . فإن قلت إن بعض المدن الأفريقية الصغيرة تتميز بطابع أندلسى صميم مثل خانن فى شمال مراكش قلنا إنها حديثة الإنشاء نسبيا لأنها شيدت جملة واحدة آخر القرن الخامس عشر ، وإن قلت مثل ذلك فى بعض موانى الشاطئ الجزائرى وبعض المدن الكبيرة فى شمالى تونس وعلى سواحلها : قلنا إنها مما أسسه المهاجرون المورسك النازحون أو مما غلبوا عليه سكانه .

واعتبار آخر يجب أن يدخل فى حسابنا عند دراسة المدن الأندلسية والمغربية دراسة مقارنة فى العصر الوسيط : ذلك هو قلة المراكز الحضرية شيئا ما فى أرض إفريقية الشمالية ثم كثرتها فى الأندلس . هذا إلى ضيق شبكة الطرق فى ناحية وكثرتها منذ العصر الرومانى فى الناحية الأخرى . فمن الثابت اليوم أن السيادة العربية فى شمال أفريقية أدت أداء سريعا إلى تدهور الأكثرية العظمى من المراكز الحضرية أو إلى انقراضها . أما فى أسبانيا فلم يكن من ذلك شىء ، مع أنها مثل القسم البحرى من مراكش تحول طبيعتهما الجغرافية دون كل حياة غير الحياة المستقرة . وإلى هذا التدهور أشارت فقرات طويلة من مقدمة المؤرخ الاجتماعى ابن خلدون . وهى المقدمة التى ضمنها نتائج تفكيره العميق ، وسجل فيها نظراته ، ومن ذلك أنه اتخذ حيـــاة الحضر أساسا موضحا لنظريته عن حياة البداوة وحياة الاستقرار ولكن هذه الآراء نظرات شخصية مثالية بحت . ولست أريد الوقوف عندها .

*
* *

وليس فى عزمى كذلك أن أستعرض أوصاف الجغرافيين المسلمين من مشارقة ومغاربة ممن وصفوا المدن الأندلسية والمغربية . ذلك أنها أوصاف تختلف فى قيمتها ، ثم إن معظمها

نشر وترجم واستغل ودرس . ثم هى على كثرتها ذات أسلوب موجز، وتكاد تكون موثسة، فمن النادر أن يتجاوز التعليق على مدينة ما صحيفة واحدة . والأكثر أن يتضاءل التعليق فلا يتجاوز سطورا معدودة ولكن اسمين اثنين من بين هؤلاء الجغرافيين يبرزان بروزا خاصا : هما اسما البكرى والإدريسى . والجزء الخاص بأسبانيا من كتاب الأول لم يقع لنا كله. أما مسالك المؤلف الثانى فبالغة الأهمية ، ولكنها ليست إلا مسالك تعين المسافات والمراحل ولا تصف مراكز الحضر إلا وصفا شديد الإيجاز ، فيما عدا قرطبة والمسجد الجامع والمرية . والبكرى والإدريسى جميعا يقتصران عامة على أقل ما يحتاج إليه المسافر من المعلومات حين يحدد خط سيره ، مثل الإشارة إلى الأسواق والفنادق والمساجد الجامعة والقلاع ومثل إشارات سريعة إلى موارد المياه فى المدن وصناعاتها الهامة ومنتجات أرضها . وهى إشارات ضحلة ، وهى خاصة أقل مما نتوقع .

فهل تعوضنا الوثائق التاريخية إلى حد ما عن فقر المصادر الجغرافية ؟ إنا لنكاد نطمع فى ذلك . فقد ظهر فى المشرق مؤرخون أعلام مثل المقريزى فى مصر ، جعلوا من أنفسهم مؤرخى مدن بمعنى الكلمة ، فرسموا المدن بأكبر التفصيل : فى نشأتها ونموها . ولكن الأمر ليس كذلك للأسف فى أسبانيا الوسيطة ولا فى مراكش قبل عصر بنى مرين . بل الأغلب ألا يهتم المؤرخ الأندلسى أو المغربى بمدينة إلا بقدر ما تكون مسرحا لحادث سياسى هام ، أو هو قد يذكرها فى تاريخه ليذكر تأسيس بناء هام أو ترميمه، كأن يكون مسجدا مثلا . ولدينا الدليل على أن مؤلفات مقصورة على المدن وجدت فى المغرب فى العصر الوسيط ، غير أنه لم يبق منها شىء يخص المغرب . والراجح أنها كانت تهتم خاصة بالتاريخ والتراجم وتهمل الأوصاف . ويكفى فى تدعيم هذا الفرض أن نذكر كتاب الإحاطة لابن الخطيب الرجل السياسى الغرناطى المشهور . وهو كما يفيد عنوانه : تاريخ لعاصمة بنى نصر . ولكنه على ضخامته لا يحوى إلا بضع صفحات تخص غرناطة نفسها ليس فيها إلا أدنى حد من الإشارات الطبغرافية ومن ذكر أسماء الأماكن . أما ما ألف من الأوصاف بعد إخراج العرب — مثل وصف أندريا ناڤجيرو البندق (١٥٢٦ م) أو أوصاف لويس مارمول أو برمودیز دى بدرزا أو وصف هنريكيز دى جوركيرا خاصة وهى أوصاف نشرت منذ بضع سنين — فذات قيمة تاريخية لا تدانيها أخبار المؤرخ المسلم الكبير عن المدينة وعن قصر الحمراء .

وأمر فاس على عكس ذلك ابتداء من القرن الرابع عشر لأن تواريخ بنى مرين تعنى بالتفاصيل الطبغرافية الدقيقة وتفردلها مكانا لائقا بها . وهى تفاصيل يسهل استيعابها لبقاء

كثير من أسماء الأماكن الواردة فيها . ولكنها تفاصيل يجب أن تؤخذ بروح الحذر وأن تقارن بالوصف القيم الذى ألفه ليون الإفريقى عن فاس . وقد لقب بالإفريقى خطأ ؛ واسمه الوزان : ولد فى غرناطة عام ١٤٩٥ أى بعد استيلاء الملكين الكاثوليكيين على المدينة بثلاث سنين . أما حياته فطريفة : قضى شبابه فى فاس، وعمل زمنا كاتبا فى إدارة أوقاف جامع القرويين ، ثم رحل إلى مكة وقسطنطينية ، وأسر أثناء عودته عام ١٥٢٥ ، أسره قراصنة صقلية ، واقتادوه إلى نابلى . فدخل فى النصرانية ؛ وتسمى باسم جان ليون ؛ وجعل رومة مقامه ، وبها ألف كتابه المشهور « وصف أفريقية »: ألفه أولا باللغة العربية ثم بالايطالية ثم ترجم الكتاب بعد ذلك إلى اللاتينية ولغات أوربية أخرى كثيرة . والكتاب معين للأخبار يتوسطه وصف فاس ، كما يتوسط الحجر الكريم الحلية . وقد استطعت منذ سنين أن أقع فى فاس على أصول الأرشيف الذى اعتمد عليه ليون ، فرأيت كيف أن ما ذكره فى كتابه عن أسماء المواضع على أتم وجه إنما كان نسخا من الأصول بترتيبها الأصلى دون أدنى تغيير .

ولدينا نوع آخر من المصادر يورد أخبارا تتصل بالتاريخ الاجتماعى فى مدن المغرب الوسيط وبالحياة الاقتصادية أكثر مما تتصل بتصميم هذه المدن . وهذا النوع هو كتب الحسبة . وسأعود إلى ذكرها بعد قليل حين انتهى من عرض بعض ملاحظات ومن ذكر عدد من التحديدات عن الخواص العامة التى تميز أنظمة المدن .

*
* *

قد يعسر علينا حين نتناول أمر المغرب الإسلامى أن نحدد نقطة الفصل أو أن نقيم فارقا واضحا بين النظم الحكومية وبين النظم البلدية الحقيقية . ونقول بوجه عام : إن المدينة حين تبلغ درجة معينة من النمو وحين تصبح جديرة باسم المدنية تكون قصبة إقليم يختلف اتساعا وضيقا ، ويكون اعتماد الإقليم عليها واعتمادها على الاقليم الذى يمونها بقدر حاجتها من المواد الغذائية . ويغلب أن تكون المدينة فى نفس الوقت القصبة الإدارية للاقليم ، وأن تكون كذلك مقر الأمير أو نائب عن الأمير يلى المدينة هو الوالى أو العامل أو الرئيس بوجه عام . وهذا الرئيس يمثل السلطان فى المدينة وإقليمها . وهو، سواء كان صاحب السلطان أو نائبا عن السلطان ، صاحب الكلمة فى المصالح الإدارية التى لا بد منها لكى تسير النظم المكيفة للحياة الاجتماعية فى الإقليم كله سيرا حميدا . ومن المميزات الجوهرية التى تميز النظم البلدية فى المغرب الإسلامى أن هذه النظم تنطبق على المدينة وعلى محيطها القريب فى آن واحد .

ومن الطبيعى عند الكلام على الصورة العامة للنظم البلدية أن نخص ممثل السلطان فى المدن الكبيرة – أى الوالى أو الرئيس – بمكان خاص . فنقول إنه يندر أن يختار العامل من بين الأرستقراطية المحلية . أما فى أسبانيا فى أيام الخلافة الأموية فقد كان الوالى يختار من رؤساء الإدارة فى قرطبة . أما فى أيام المرابطين فقد كان ولاة المدن فى مراكش وأسبانيا على السواء من البربر من أقرباء الأمير الحاكم أو من أمراء قبيلته . وكذلك كان الأمر أيام الموحدين، ولهذا قد يحدث أن يكون الوالى فى مدينة هامة مثل اشبيلية وقرطبة أول القرن الثانى عشر غريبا كل الغربة عن المدينة وعن الإقليم معا . فهل معنى هذا أنه يصطحب عند قدومه إلى المنصب المسند اليه عددا من الموظفين ليتولوا من تحت يديه المناصب الثانوية ؟ الجواب أن الرجوع إلى النصوص يثبت أنه لم يحدث من ذلك شئ ، وأن الوالى كان يكتفى بأصطحاب أتباع شخصيين ومساعدين حربيين فقط . ثم إن العلاقات بين الوالى الأفريقى وسكان المدينة الأندلسية كانت تتوطد إلى حد كبير بوجود وزير إلى جانب الوالى أو « مشرف » مختار من بين الأرستقراطية المحلية يفرض على الوالى فى أغلب الأحيان ما يتخذ من قرارات ، ويتدخل تدخلا مباشرا فى الأمور التى نتوقع عادة إجراءها على أيدى ولاة بلديين . وقد يحدث أحيانا أن تؤخذ الأموال اللازمة للإدارات البلدية من خزانات تموّنها أوقاف ويقوم على إدارتها ولاة من رجال الفقه وخاصة القاضى . ومن هذا نرى فى كثير من الأحوال نظم البلدية تختلط بالنظم الحكومية أو السياسية كما تختلط بالنظم الدينية أيضا . ومهما يكن من شىء فقد كان الوالى ووزيره من ناحية ثم القاضى ونوابه من ناحية أخرى أصحاب النظر الدائم غير منازعين فى إدارة المدينة ، وأصحاب الحق فى التدخل المباشر فى أمورها .

أما بعد أن قررنا هذه الملاحظات عن حدود اختصاص الوالى ، فلننظر فى ذات الاختصاص المسند إلية باعتباره الممثل الأعلى للسلطان فى المدينة ؛ بوصفه أنه « صاحب المدينة » . الراجح أن اختصاصاته لم تكن إلا اختصاصات متعلقة بالقضاء المدنى والشرطة. والأخبار التى لدينا عن ذلك تنتهى بنا إلى شىء من الاضطراب . وهى أخبار نأخذها خاصة عن مؤلفين مغربيين : هما ابن سعيد وابن خلدون : وكلاهما يقرب بين صاحب المدينة وصاحب الشرطة ، ويفيد بأن الاسمين إنما يدلان على ولاية واحدة بعينها . ولكنى درست المسألة فى العصر الأموى واتجهت إلى أن الأمر لم يكن كذلك قط ، وأن كليهما كانت له اختصاصات مستقلة مختلفة عن اختصاصات صاحبه محددة تحديدا كافيا . على أنه من الجائز أن تكون الولايتان قد اندمج بعضهما فى بعض بعد هذا العصر. ويؤيد ذلك

أن ابن سعيد يذكر فى كتابه مقالة نقلها عنه المقرى وتفيد أن ولاية الشرطة ظلت باقية فى أسبانيا الإسلامية ، وأن العامة كانوا يسمون صاحبها « بصاحب المدينة » أو « صاحب الليل » ، وكانت مهمته القضاء فى الجنايات والمخالفات التى لا تدخل فى اختصاص القاضى فعلا . ومعنى هذا أنه يعد أقل مرتبة من القاضى . أما ابن خلدون فيقول إن صاحب الشرطة فى غرناطة كان يسمى فى أيامه «صاحب المدينة» ، ويسمى فى تونس : «الحاكم» . والأرجح أن تكون الاختصاصات العامة التى يتولاها صاحب المدينة فعلا هى نفس الاختصاصات التى يتولاها اليوم فى المدن المراكشية القائد أو الباشا . وهو حاكم ورئيس بلدية معا . ومهمته الأساسية تنحصر فى الفصل فى كل القضايا التى لاتدخل فى نطاق الشرع . ولكنا على أى حال لانزال نفتقر إلى نص دقيق يحدد اختصاصات صاحب المدينة تحديدا كافيا مفصلا دقيقا .

ولكن هذا الوالى كان على أى حال المسئول عن الأمن فى المدينة وعن منع السرقات. والظاهر أن السرقات كانت تكثر فى مدن المغرب فى العصر الوسيط دون أن تلقى عقابا رادعا ، أو أن ذلك على الأقل ما يستفاد من قول ابن سعيد ، وهو مؤلف معروف بصدق الأخبار : قال إنه لا يمر يوم فى مدن أسبانيا دون أن نسمع ببيت ينهب . ويخبرنا نفس المؤلف أن الشوارع كانت ذات أبواب تغلق فى الليل ويوضع بإزائها حارس معه كلب وفانوس وتحت يديه سلاح ، وكذلك كانت شوارع فاس إلى عهد قريب . وعند ابن عبدون أخبار عن صاحب المدينة فى اشبيلية أيام المرابطين . ولكن المؤلف فقيه معتز بالفقه ، وهو لذلك يصور صاحب المدينة على أنه وال يكون تحت يد القاضى مباشرة ، ويقول إنه يتولى فى مجلسه القضاء المدنى ، ويقبض على أصحاب الجرائم ، ويقوم بتوقيع الحجز ، ويأمر بالتفتيش ، وينظم طواف حراس الليل لليلة التالية . وكان يعاونه فى مهمته تلك عرفاء وحراس ، مثلهم مثل «المخزنى» اليوم فى محاكم الباشوات فى مراكش ، ويعاونه أيضا رؤساء شرطة وشرط . أما الأحكام التى يصدرها فأكثرها تأديبى كالجلد أو قطع اليد أو التشهير بالجانى فى المدينة على دابة يركبها من خلاف . وله الحكم كذلك بالحبس . فالسجن والسجانون يجب أن يكونوا تحت رقابته الدائمة . وذلك أن السجانين فى الغالب من شرار الناس لا يتحرجون عن السطو على الطعام المرسل إلى المحبوسين من أقربائهم . ونحن نعلم أن إطعام المسجونين على حساب الدولة إنما هو فكرة حديثة .

والراجح أن صاحب المدينة كان فى المغرب صاحب اختصاص فى جباية الأموال . ونحن نعلم أن قبول نظام من النظم أو الزراية عليه أمر متوقف خاصة على السياسة المالية

إلى حد كبير. وسر ذلك أنه كان يندر أن يصرف مال الخزانة العامة على المنافع العامة، ولهذا كان أعظم ما يحرص عليه السلطان فى أوقات السلم الداخلى أن يلغى الضرائب الإضافية. وفى تاريخ أسبانيا أيام الخلفاء وأيام بنى عامر أدلة كثيرة على ذلك. ودليل آخر نجده فى عبارة وردت فى كتاب «روض القرطاس» مضمونها أن أقاليم إفريقية والأندلس لم تكن أيام المرابطين تدفع إلا الزكاة والعشر : وهى الضرائب الشرعية دون أن تضاف إليها ضرائب إضافية مثل الضريبة العقارية أو الخراج ومثل الحقوق الملوكية. ولكن مثل هذه العصور المتميزة بالقناعة فى الجباية كانت دائما عصورا قصيرة جدا. وقد كانت الضرائب غير الشرعية المسماة بالمكوس مثارا دائما للحيف فى العصور الوسطى. وكان خطرها كبيرا لأنها كانت تعطى التزاما وكان ملتزموها من غير المسلمين أحيانا، مثل ربيع بن تيودلفو القومس المستعرب الذى عاش زمن الحكم الأول فى قرطبة.

وإلى الضرائب الحكومية كان فى أسبانيا الإسلامية ضرائب بلدية تعطى التزاما كذلك لمن يسمى بالمتقبل. ويسمى هذا الالتزام قبالة. ومنه فى الأسبانية لفظ «القبالة» وفى الفرنسية لفظ «جابيل». وقد صب ابن عبدون سخطه على المتقبلين وقال إنهم كالزنبور لم يخلق إلا لضرر الإنسان دون أن يكون له أى نفع.

وبفضل ليون الإفريقى وما ساقه من أخبار مراكش فى القرن السادس عشر نستطيع أن نكون لأنفسنا فكرة واضحة عن قبالة الضرائب فى العصر الوسيط. وينسب ابن فضل الله العمرى إلى السلطان المرينى أبى سعيد أنه أحل قبالة عامة اسمها الضمان محل جميع الضرائب البلدية. وهى إصلاح يذكّر باصلاح سنة ١٦٨٠ فى فرنسا الخاص بالمتقبلين العموميين. أما ليون الإفريقى فيقول إن الضرائب البلدية المقبلة فى فاس هى : أولا حق الباب أو المكس، وقدره عادة ٢٪ إلا على العجول والطيور والخشب. ثم ضريبة الواردات. ونستطيع أن نضيف إلى ذلك حق السمسرة، وضرائب السوق، والخمارات والفنادق، والبيوت العامة. وكانت حصيلة هذه الضرائب ترتفع إلى مبالغ هائلة لأنها كانت يعهد بجبايتها بطبيعة الحال إلى من يتقدم عنها بأكبر عطاء. فكان أمرها لا يخلو من الوقوع فى الحيف. ويقول ابن فضل الله إن ارتفاعها فى منتصف القرن الرابع عشر بلغ ١٥٠ ألف دينار فى فاس ومراكش، وبلغ ٨٥٦ ألف دينار فى مراكش كلها.

وإلى جانب المتقبلين كان يوجد فى المدن عمالٌ جباة بمعنى الكلمة، وظيفتهم تقرير ارتفاع الضرائب الشرعية التى تدفع عينا أو نقدا وجبايتها. وكان مجال نشاطهم

يمتد إلى الريف المجاور فقط . أما أساس الضريبة فكان يحدد بناء على قرار مقررين يزورون الأهراء أو المطامير ، أو يقدرون المحصول المنتظر أثناء الزرع أو بعد الحصاد .

هذه الأموال التى تدخل إلى الخزانة العامة بهذه الطريقة والتى يجب مبدئيا أن تسد مصارف المنافع العامة : ماذا كان نصيب المدينة منها ؟ الجواب: شيء قليل بطبيعة الحال ، أو لا شيء . وإنما كان هنالك نظام الوقف أو الحبوس الذى أشرنا اليه ، وهو نظام يجعل للمدن بعض الدخل . وذلك بأن تحصل المدن — من القيم على الوقف بعد استئذان القاضى — على حق الانتفاع ببعض أموال الوقف . ولكن هذه الأموال لم تكن تخصص قط على الأرجح إلا لتموين مؤسسات الصدقات : كإغاثة المعوزين ، والقيام بدفن الفقراء ، وإدارة الملاجئ والمستشفيات ومؤسسات المجذمين ، وكانت دائما مؤسسات محدودة ضيقة . أما المؤسسات الوحيدة ذات النفع العام التى عاشت زمنا طويلا فى العصر الوسيط فى المغرب فإنها كانت دائما تقريبا من مؤسسات الأمراء . وذلك أن يعطى الأمير من ماله المال اللازم للتأسيس ، وأن يتكفل بإدارة المؤسسة من دخل وقف خيرى موقوف عليها . وفى النقوش والتواريخ شواهد على ذلك لا شك فيها . فإذا كانت فاس وغرناطة فى القرن الرابع عشر قد استثارت إعجاب الرحالين بكثرة مؤسسات الإحسان ، فقد كان فضل ذلك بشهادة النقوش والتواريخ يرجع إلى السلاطين الذين تولوا حكمها وإلى عملهم الشخصى .

وقد كان لنظام الحبوس فى اقتصاد المدن الإسلامية دور عظيم دائما . ولفظ الحبوس هو اللفظ الاصطلاحى عند المالكية . وهو اللفظ الذى استعمل فى أسبانيا ومراكش فى العصر الوسيط . أما فى المشرق فاللفظ الاصطلاحى هو لفظ الوقف . ويعرف بأنه مؤسسة ينشئها شخص حر التصرف فى ماله فينزل عن حقه فى الانتفاع بدخل المؤسسة ، ويخصص هذا الدخل لأغراض حميدة مشروعة تخصيصا أبديا . ويقال إن هذا النظام الإسلامى بيزنطى الأصل . ولكن الواقع أننا نراه قائما فى العالم الإسلامى منذ البدء . ويتناول المؤلفون المختلفون الوقف من وجهة تاريخية مثل المقريزى بالنسبة لمصر . ولدينا نقوش عديدة فى المشرق والمغرب بأوقاف مؤسسة . والأغلب فى المدن وقف المحال التجارية والمخازن والاصطبلات أو المحال المخصصة للاستغلال الصناعى مثل المطاحن وأفران الخبازين والحمامات ومعاصر الزيت ومعامل النسيج . وتوقف كذلك المستغلات الزراعية مثل الحدائق والملكيات العقارية وقرى بأكملها .

ويبين عقد التأسيس وجه استعمال الدخل سواء كان عينا أو نقدا ، فيخصص الدخل أحيانا للحرمين بمكة والمدينة . والأغلب أن يخصص الدخل لصيانة المساجد وإدارة المدارس المنشأة لتحفيظ القرآن ، وغيرها من المدارس ، وللمستشفيات وللقائمين على مثل هذه المؤسسات . ويخصص الدخل أحيانا للفقراء والمساكين الذين لا دخل لهم .

ونظام الوقف نظام لا يزال قائما فى العالم الإسلامى . وهو فى مراكش لم يكد يلحقه تغيير كبير فى صورته منذ العصر الوسيط . وقد رأينا أن ليون الإفريقى إنما رجع فى القرن الخامس عشر إلى أرشيف الأوقاف خاصة ، ونقل إلينا عن نظام الأسواق فى فاس ، وعن طبغرافية الأسواق المختلفة ، وعن مكان تجارة الترف قدرا من الأخبار الدقيقة عظيم القيمة من الناحية التاريخية . فإذا قرأنا سرده وتتبعناه فى ذكر الدكاكين العديدة التى كانت كلها مؤجرة لحساب إدارات أوقاف المساجد فى العاصمة المراكشية ، أدركنا أهمية هذا النظام الإسلامى الخاص المتميز بصفة الدوام . وقد كانت مصالح البلدية فى مدينة فاس فى القرن الرابع عشر تدار كلها تقريبا بفضل الحبوس. ثم إنه كانت توجد بها أيضا مؤسسات خيرية منشأة لأغراض محدودة مثل توزيع الخبز يوميا فى السجون أو نقل القمامة ، أو إنارة المدينة القديمة . وكان منها أيضا أوقاف للزواج . أما الدكاكين المملوكة للحبوس فإن إيجارها كان يعقد لآجال طويلة جدا بأجور سخية جدا . أما حبوس المساجد فكان يديرها مفتشون أو نظار ، وكذلك الحبوس المخصصة للمنافع العامة .

وحق التعيين لمناصب تفتيش الحبوس كان دائما لقاضى المدينة . وكذلك كان الأمر فى المغرب على الأقل . وكان اتساع اختصاصات القاضى واتصال جميع هذه الاختصاصات بالدين اتصالا يختلف بعدا وقربا ، مما يجعل القاضى أحد السلطات البلدية الهامة إن لم يجعله أعلى هذه السلطات . وكان من نتيجة ذلك أن وجد تنازع فى الاختصاص بين السلطة المدنية والسلطة الدينية .

*
* *

ولننتقل الآن إلى منصب بلدى آخر ، لا يقل أهمية عن المنصب الذى يتولاه صاحب المدينة مع خضوعه خضوعا مباشرا لإشراف القاضى . وهو منصب الحسبة . فالمحتسب على الجملة هو المنظم الحقيقى للحياة الاقتصادية فى المدينة وللحياة التجارية والصناعية أيضا . ولدينا الدلائل على أن نظام الحسبة وجد فى المغرب دون انقطاع طوال العصر الوسيط . وقد اكتشفت كتب تناولته ، بحيث نستطيع أن نستقى من دراسة هذا النظام أخبارا موثوقا بها وعلى شىء من الوفرة .

ونظام الحسبة يعد من أوائل النظم الإسلامية ظهورا . وهو لهذا ذو صفة دينية فى أساسه الأول . وأساسه الفكرة المعروفة : فكرة الواجب المفروض على كل مؤمن وعلى أمير المؤمنين خاصة : أن يطبق مبدأ الرقابة الأخلاقية آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . والقيّم على هذه المهمة هو المحتسب . وكان المحتسب أولا ممن ينيبه الإمام شخصيا . ثم دخل على ولاية الحسبة تطور كبير لا من الناحية النظرية لنظام الحسبة بل من الناحية العملية . ثم إنه من الطبيعى أن تتحول ولاية المحتسب عن الرقابة إلى كثير جدا من شئون الحياة العامة وذلك لتراخى الحاجة إلى تطبيق مبدأ الرقابة الأخلاقية شيئا فشيئا على مر الزمن . كانت هذه الرقابة مثمرة فى جماعة قليلة العدد مقيمة على أرض محدودة ، فلما اتسع الإسلام اتساعا كبيرا ، واقتضى ذلك وضع نظام إدارى للأراضى الإسلامية مؤسس على إقرار الطبقات الاجتماعية وتمايزها فيما بينها ، أدى ذلك إلى تغيير كبير فى العبء الملقى على عاتق الرقيب على الأخلاق . ومع ذلك فقد بذلت المحاولات لتجديد الحسبة فى القرن الثانى عشر فى مراكش . فكان المبدأ الذى اعتمد عليه ابن تومرت صاحب مذهب الموحدين أول الأمر : هو مبدأ تغيير المنكر . كان ذلك حين بدأ ابن تومرت يدعو فى جبال أطلس الكبرى إلى الثورة على نظام المرابطين . ولكنا لم نعرف بعد هل كان تطبيق هذا المبدأ فى الحسبة أمرا لم يقصد به فى صميم رأى ابن تومرت إلا أن يكون وسيلة قريبة لتدعيم هيبته فى نفوس العامة وإدماجهم فى دعوته . ومهما يكن من شىء فقد أطلق لقب المحتسب أيام الموحدين على رؤساء الأقاليم الذين كانوا يمثلون سلطان الموحدين بين القبائل المراكشية كما يمثلون عقيدة التوحيد نفسها .

ولكنا إذا صرفنا النظر عن فكرة المحتسب عند الموحدين ، لأنها فكرة مقصورة عليهم ، وجدنا العالم الإسلامى الوسيط يميل فى الناحية الاجتماعية إلى إقرار التمييز بين المخالفات الدينية ، أعنى مخالفة أوامر الدين ، وبين المخالفات الجنائية والتجارية تمييزا أخذ يزداد على مر الأيام . ثم لم تلبث ولاية الحسبة أن اقتصرت فى أساسها على تتبع المخالفات التجارية والعقاب عليها فى المدن الإسلامية . ونحن نعلم أن هذا الأساس لا يخرج بمهمة المحتسب عن أساسها الدينى فى شىء . وذلك لأن نظرة الإسلام إلى التجارة تقضى باعتبار المعاملات ، مهما تكن طبيعتها ، خاضعة لمجموعة من القواعد مقررة بالسنة .

وقد عرض المؤلفون العرب لهذه القواعد التى تعد أساسا لمبادئ الأخلاق التجارية فى الإسلام ، وشرحوها ، ومنهم خاصة الغزالى المشهور فى كتابه إحياء علوم الدين فى آخر القرن الحادى عشر . ويرى الغزالى أن العلاقات التجارية يجب أن تكون قبل كل

شيء علاقات أخوية ، وأن التاجر فى سعيه إلى كسب قوته وتحقيق ربحه، يجب ألا يضيع آخرته ولايلحق الضرر بجماعة المؤمنين الذين ينتمى اليهم . ومن هنا ندرك أن المحتسب المكلف بمنع الغش ، وبضمان أمانة الصناع والباعة ، وبأن يكون كل ما يباع معروف القيمة ، داخلا فيما يجوز الاتجار فيه ، إنما هو وال يجب أن يكون نائباً عن السلطان الحريص على ازدهار التجارة والصناعة فى أراضيه ، ويجب فى نفس الوقت أن يكون نائباً عن القاضى وهو وال دينى .

ثم إنه لا تعوزنا الأخبار النظرية عن مهمة المحتسب فى الجماعة الإسلامية فى العصر الوسيط. فإن دوره، الذى أخذ يضيق ويتحدد، يختلف من غير شك باختلاف العصور والبلاد . وقد أسهب الماوردى فى القرن الحادى عشر الميلادى فى كتابه « الأحكام السلطانية » وهو كتاب تقتصر قيمته على الناحية النظرية، أسهب الكلام على اختصاص المحتسب . والراجح أن هذا الاختصاص لم يكن فى صميم رأى الماوردى إلا شيئاً مثالياً بحتاً مخالفاً للواقع المعروف فى زمنه . وأحق منه بثقتنا كاتبان متأخران : هما المقريزى وابن خلدون . أما المقريزى وهو يتناول التاريخ المصرى الإسلامى كما نعلم فإنه يعد ولاية الحسبة من أكبر الولايات العربية . فللمحتسب فى مصر نواب ينيبهم فى جميع الكور ، ومن واجبهم التجول للإشراف على رؤساء الصناع وتجار المواد الغذائية . ويتقاضى المحتسب ثلاثين دينارا فى الشهر وله مجلس يعقده فى أحد مساجد العاصمة الكبرى . وتحت إمرته المباشرة ديوان رسمى لضبط الموازين والمكاييل . وهذا الديوان يحتكر بيع هذه الموازين والمكاييل ويضع عليها علامته .

أما ابن خلدون فإنه يخص الحسبة بكلام طويل فى مقدمته المشهورة وهو يعد الحسبة من الولايات الدينية فى الدولة . ويعرفها بأنها ولاية منوطة بنظام الرقابة على الأخلاق ثم يحدد واجبات من يتولى الحسبة ومن يساعده فيقول إن واجباته تشمل قبل كل شيء الرقابة على نفاذ الأوامر المتصلة بالصالح العام فى المدينة التى يلى فيها . ثم ينتقل المؤرخ إلى بعض الاعتبارات التاريخية فيقول أن وضع الحسبة « أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية قبل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره . ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما فى أمور السياسة اندرجت فى وظائف الملك وافردت بالولاية » وأصبح تعيين المحتسب من حق الإدارة المدنية لا من حق القضاء .

ومهما يكن من أمر هذه الاعتبارات التاريخية فإن طابعها النظرى يبعدها عن الإفادة فى دراسة الحياة الاجتماعية فى المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط . ولكن لدينا لحسن الحظ أدب خاص بالحسبة ، وهو أدب غير وفير ، ولكنه ذو أهداف عملية بحيث نستطيع الانتفاع به ، وقد كان من الطبيعى أن يستتبع مثل هذا النظام الإسلامى الهام كتابة كتب عامة لعامة الناس كما يستتبع وضع كتب موجزة تتخذ هيئة مفكرات الغرض منها تسهيل مهمة المحتسب وتحذيره من الغش والتقليد مما يحتاج فى اكتشافه والضرب على يد مرتكبه إلى خبرة طويلة .

وقد عرف فى الشرق من هذه الكتب الموجزة إلى الآن أربعة . ألف الأول لصلاح الدين فى القرن الثانى عشر ، ونشر الثانى حديثاً ، وأكثر ما فيه يخص مصر . والثالث ألف فى القاهرة آخر القرن الثالث عشر ألفه ابن بسام . وقد عرض له بالتحليل الأب شيخو عام ١٩٠٧ . والرابع وهو أشهرها قد طبع مرات فى الشرق ، هو الذى ألفه الجوبرى ؛ وقد استغله عام ١٨٦٠ المستشرق برناور استغلالا كبيرا فى كتابه « بحث فى نظم الشرطة عند العرب » وهو بحث منشور فى المجلة الأسيوية باللغة الفرنسية .

أما عن المغرب فقد كنا إلى عهد غير بعيد لانعرف كتاباً مؤلفاً فى هذا الباب. وكان من حسن حظى منذ بضع سنين أن اكتشفت كتابين على التوالى فى مراكش . أحدهما ألفه السقطى محتسب مالقة آخر القرن الحادى عشر أو أول القرن الثانى عشر ؛ وقد نشرته عام ١٩٣١ بالاشتراك مع الأستاذ كولان . أما الثانى فألف بعد هذا العصر بقليل فى مدينة اشبيلية ، ألفه ابن عبدون . وقد نشرت نصه أولا ثم نشرت بعد ذلك ترجمته الفرنسية .

وما فى هذين الكتابين من أخبار جديد كل الجدة ، يؤدى إلى ملاحظة هامة هى أن الحياة الاقتصادية فى أسبانيا الإسلامية فى العصر الوسيط وفى المغرب أيضاً من غير شك لم تتعرض بوجه عام إلا لقليل من الكوارث السياسية التى تنزل بالمدن . ويستخلص من قراءة هذين الكتابين أيضاً وجود حياة اقتصادية وتجارية كبيرة مدارها التعامل بين المسلمين ووجود جماعات هامة من اليهود والنصارى . ثم إن أخبار هذين الكتابين الأندلسيين الدقيقة فى أمر الحسبة تؤدى إلى تأييد فكرة لم تكن تعرض لنا إلا على سبيل الفرض : وهى أن اختصاصات المحتسب فى المغرب فى العصر الوسيط كانت أكثر تحديداً منها فى المشرق ، وتؤدى كذلك إلى أن ولاية الحسبة كانت مما تقتضيه الحاجة الحقيقية .

وأحسن دليل على أهمية المحتسب من الناحية العملية فى الأندلس أمر يستنتج من أن الملوك المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليما أبقوا فيه المحتسب . ومن الطريف أن نجد هذه الولاية الإسلامية فى أساسها تنتقل من الأراضى الإسلامية إلى الناحية الأخرى من شبه الجزيرة الإيبيرية ، وأن نجد لفظ المحتسب يدخل فى اللغة القشتالية فيصير الموتاس ليدل على الوالى المكلف بضبط الموازين والمكاييل . وفى أرشيف كاتيدرائية طليطلة فى القرن الثالث عشر — وهو الذى نشره الأستاذ جنزاليس بالنسيا — نجد أسماء ثلاثة ولاة لضبط الموازين هم دومنجو استيبان ودومنجو أسار ودومنجو ميكائيل بن روى دياز .

ولا نزال نجد المحتسب إلى اليوم فى المدن المراكشية الرئيسية . والراجح أن اختصاصاته فى أوائل القرن العشرين لم تكن تغيرت قط منذ العصر الوسيط . وقد درسها دراسة تفصيلية الأستاذ أوبان منذ ١٩٠٤ . وستظهر فى هذا الموضوع دراسة هامة سيقدمها قريباً الأستاذ تورنو رسالة فى باريس عنوانها « فاس الحديثة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية » .

فإذا دققنا النظر فى كتب الحسبة الأندلسية المؤلفة فى القرن الثالث عشر وجدنا أن مهمة المحتسب لا تقتصر على الإشراف على العمال والتجار بل يمتد إشرافه على نقابات الصناع المختلفة حتى معلمى المدارس والمضحكين والمنجمين ، وعلى الجملة كل من ينتظر أن يخدع عملاءه بأى صفة كانت فيوقع بذلك الضرر بالجماعة الإسلامية . ويكفى فى إيضاح ذلك مجرد ذكر رءوس الموضوعات فى هذه الكتب . أما كتاب السقطى فيبدأ بمقدمة يبين المؤلف فيها أنه يقصد إلى تأليف كتاب يحوى « تاريخ الغششة من التجار والعمال ممن يرود الأسواق وتطفيفهم المكاييل والموازين ووسائلهم فى بخس البضائع وخدعهم التى اعتادوها فى معاملاتهم وتخفيهم فى عرض الصفقات وإبرامها » . وقد قسمه إلى ثمانية فصول تتناول على التعاقب الموازين والمكاييل والوزانين والكيالين وأصحاب الدقيق وأصحاب المخابز والقصابين وباعة الأطعمة وباعة الروائح والعطارين والنحاسين والسماسرة والصناع وباعة البضائع المصنوعة. أما كتاب ابن عبدون فإن أبوابه أقل ترتيباً ، وهو يعرض للمهن المختلفة ثم يخصص كلاما طويلا للميناء النهرى على الوادى الكبير وما به من الحرف مثل ملاحى المخاضات وربابنة السفن النهرية وملاحى الأنهار وغيرهم ، والمذكر أن المؤلف إنما يتناول الحسبة فى أشبيلية ويكتب فى نفس المدينة .

وتميز هذه الكتب دائماً بين تجار الأشياء المصنوعة وأهل الحرف الذين يبيعون بأنفسهم ما يصنعون بأيديهم . وتذكر هذه الكتب أحياناً «الأمين» وهو شبه « صنديك » لأهل المهن . ولكننا لا نجد قط ذكراً لاصطلاح يطلق على أهل حرفة بعينها .

وموضوع نقابات الصناع وجماعاتهم من الموضوعات التى تناولها العلماء الأوربيون بالدراسات المختلفة . والراجح أنها نشأت بالشرق أثناء دعايات جماعة القرامطة السرية . وهى جماعة ظهرت بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر ، وحاولت أن تصبغ الجماعة الإسلامية بصبغة المساواة . ولكن الثابت أننا لا نرى نقابات الصناع فى المغرب تشارك فى إدارة المصالح العامة فى المدينة أو تقوم فى حياة المدينة الاقتصادية بدور غير دور التحكيم الخالص أو تنتزع بعض الامتيازات البلدية للمدن شيئاً فشيئاً ، كما حدث فى العالم المسيحى . ثم إن هذه النقابات لم تعرف الانقسام الذى ظهر فى أوربا الغربية بين أصحاب العمل والعمال والذى انتهى إلى نشأة جماعات أصحاب العمل وجماعات العمال .

والنقابة فى الشرق تسمى «حرفة» أو «صنفاً» وتسمى اليوم فى مراكش «هنطة» ، وأساسها عقد تأسيسى يحدده العرف ويسلم به الداخلون فى الجماعة ويقسمون على احترامه . ثم إن الدخول فى النقابة يقتضى مراسيم دينية ويتخذ خاصة طابع الجمعيات السرية . ولا شىء من ذلك فى المغرب . وهذا هو الفارق الأساسى بين جماعات الحرف المراكشية اليوم وبين الجماعات التى كانت قائمة فى القاهرة ودمشق منذ نحو خمسين عاما . وقد فسروا انعدام طابع الجمعيات السرية بوجود الطرق الدينية وكثرتها واتساعها فى كل أرجاء إفريقيه الشمالية . فقد كان لها هذا الطابع الصوفى وكانت تدخل فى صفوفها أكثر أهل الحرف فى المدن المراكشية . وقد أظهرت الإحصاءات الحديثة نسبة عدد الصناع فى هذه الطوائف فى مراكش وتوزيع كل نوع من أنواع الحرف ، فكانت أكثر نسبة للسقائين والحصريين وأضعفها للفحامين والقصابين .

وترتيب المناصب فى النقابات كما نراها اليوم كما يأتى : الأمين وينتخب باقتراح يقدم للمحتسب ، وأمين ثان ، ثم أعضاء النقابة أنفسهم وتلزمهم طاعة قرارات رئيسهم . ومهمة الأمين على شىء من البساطة : فهو الذى يقوم بدور الخبير فى الخلافات النقابية بين أهل الحرف وعملائهم ، وهو الذى يبلغ المحتسب مطالب الجماعة فيما يخص تقرير ثمن التكاليف وتحديد ثمن البيع .

وترتيب المناصب هذا باق فى مراكش إلى اليوم . ولا شك أنه كان قائماً فى كل المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط . والكتب التى تتناول العرف التجارى فى الأندلس لا تذكر على رأس نقابات الحرف إلا الصنديك وتجعله على الأرجح مؤتمراً بأمر المحتسب ، وهى تطلق عليه لفظ الأمين أو لفظ العريف أحياناً . وهذا اللقب الأخير قاصر اليوم على صنديك القصابين .

*
* *

وبفضل كتابى الحسبة الأندلسيين هذين وهما يتناولان أسبانيا فى القرن الثانى عشر ، وبفضل وصف فاس المفصل لليون الإفريقى ، وهو يتناول مراكش فى القرن الخامس عشر ، نستطيع أن نضع ثبتا بالحرف التى كانت قائمة فى العصر الوسيط فى مدن المغرب ، ونستطيع كذلك أن نرسم صورة للحياة الاقتصادية والصناعية فى هذه المدن نفسها . ونستطيع بطبيعة الحال أن نرجع إلى أنواع أخرى كثيرة من المصادر وأهمها مجموعات الفتاوى فى أسبانيا والمغرب ، وهى بصرف النظر عن أهميتها الفقهية الخالصة قيمة بما تشير إليه فى وصفها أو فى حججها من الوقائع التاريخية والاجتماعية . ومن ذلك أيضاً أرشيف طليطلة ، وقد طبعه طبعاً جليلا زميلى وصديقى جنزاليس بالنسيا ، وهو مورد كبير للأخبار عن عصر كانت الحياة التجارية والاقتصادية فى المدن الواقعة على جانبى نهر تاجه تتأثر عملياً بنفس الحاجات وتتقارب أو تتفق فى أوضاعها .

فنقول إن عدداً كبيراً من النقابات كان الغرض منه مشابهاً للأغراض المعروفة اليوم وفى كل العصور : وهو ضمان تموين أهل المدن تموينا عادياً . ولا شك أن الصناع وتجار المواد الغذائية كانوا من أهم النقابات وأكثرها . وكان كثير منها يتصل بصناعة الخبز . فالقمح يحصد فى الريف ثم يجمعه السماسرة ويبيعونه بربح كثير فى وقت غلائه . ولكن الأغلب أن كل أسرة كانت تأخذ تموينها السنوى وتدفعه إما مرة واحدة وإما على مرات إلى طحان ليجعله دقيقاً صالحاً للعجن . وكان للطحانين طواحين إما فى المدينة وإما فى ضواحيها القريبة . وكانت الطواحين تدار إما بالماء أو بالحيوان . ولم يكن من النادر أن يرتكب الطحانون فى طواحينهم بعض الغش الخطير بخلط دقيق عملائهم بأشياء غريبة . ويروى السقطى كيف كان بعض الطحانين فى زمنه يلجأون فى الغش إلى أنواع فاحشة مثل الخلط بالجير أو عظم السمك مطحوناً . فإذا سلم الدقيق لصاحبه عجن العجين ثم أرسله إلى الفرن العادى . ولكن الراجح أن هذه العادة لم تكن جارية فى المدن فى أسبانيا . وكان الأغلب شراء الخبز من الخباز كل يوم . وكان الخبز الذى يباع للجمهور يجب أن يكون ذا شكل ووزن محدودين . وكان المحتسب يتكفل بالرقابة على نوعه . وكان من أنواع الغش الجارية أن يطلى الخبز من النوع الردئ قبل إدخاله الفرن بطبقة رقيقة من العجين من النوع الصالح . وكان هذا النوع يسمى بالخبز المكسى . ويتقاضى الخباز لإنضاج الخبز المجهز فى البيوت أجره عيناً : وهو قطعة من العجين المجهز ؛ فيجمع هذه القطع إلى آخر اليوم ثم يصنعها خبزاً ينضجه ويبيعه فى السوق .

أما القصابون فكانوا يشترون الدواب حية من تجار الماشية أوكانوا يتكلفون جمعها ويتجولون لذلك فى الريف . وكانت ماشية الذبح تذبح فى المذابح المقامة عادة خارج المدينة . ثم تحمل قطع اللحم داخل المدينة إلى محال القصابين. وتتناول كتب الحسبة بيع اللحم بالتفصيل : فتذكر طريقة وزنه. وكان بعض المحتسبين يأمر ألا يخلط لحم العجول بلحم الضأن أو بلحم الماعز عند العرض . ثم إن نقل اللحم المذبوح كان يخضع للإشراف لكيلا يضار المارة بما يتطاير من الدم .

كذلك كان بيع المواد الدسمة خاضعاً لإجراءات كثيرة ، وكذلك صنعها. وكان الزبد فى المغرب الإسلامى من مواد الترف دائماً بينما كان الزيت من مواد الغذاء العادية التى لاغنى عنها . وقد كان الزيت دائماً من أهم مصادر الثروة فى أسبانيا وإفريقية الشمالية . ولا تزال صناعته فى فاس إلى اليوم من الصناعات الأساسية فى الحى الشعبى المجاور لباب جيزا .

ويذكر ليون الإفريقى أيضاً بيع اللبن فى فاس فى القرن السادس عشر . ويذكر أنه كان يحمل منه إلى المدينة كل يوم أكثر من ٢٥ دنًا ، وهو شىء قليل فيما نقدر.

ثم هناك حرف أخرى متصلة بغذاء أهل المدن كتجار الخضر والفاكهة ، وتجار الفحم وخشب التدفئة وهناك أيضاً أنواع عديدة من صناع الأغذية المجهزة وتجارها منهم القلاءون الذين يبيعون السمك المقلو وباعة اللقيمات المقلوة بالزيت والمدهونة بسائل من زبد وعسل . وكذلك كان المرء يبتاع من الشارع كل يوم أصنافاً مجهزة مثل الهريسة ، وكانت طعاما مستطاباً فى العصر الوسيط ثم نسيه الناس نسياناً تاماً فى المغرب ، وهو من دقيق ولحم ودهن ، ومثل المصران المحشو المجهز بالتوابل ، ومثل أنواع تسمى المجبنات مصنوعة بالجبن وكان الإقبال عليها فى أسبانيا كبيراً .

ثم صناعة الملابس وكان يعيش عليها قسم كبير من سكان المدينة الإسلامية وكانت من عوامل الرواج عندهم . ولم تكن هذه الصناعة خاصة بعملاء المدينة وحدهم بل بعملاء الريف أيضاً ، وكانوا يقصدون المدينة فى أوقات معاودة لشراء حاجتهم من الملابس . وكانت العمليات السابقة على نسج الصوف أو القطن تشغل نسبة كبيرة من الصناع . ويروى ليون الإفريقى أنه كان بفاس فى القرن السادس عشر عشرون وخمسمائة منسج يعمل فيها ما لا يقل عن ٢٠ ألف عامل . فكان الصوف المغزول يعالج فى المبيضات ، وكان بالعاصمة خمسون مبيضة وفى خارجها نحو مائة على ضفة النهر . وكان هذا الصوف المغزول مما يبيعه النساء فى سوق يسمى سوق الغزل . ويندر أن نجد مدينة إسلامية فى المغرب ليس فيها

ميدان يسمى سوق الغزل . ويذكر ابن عبدون أنه كان باشبيلية فى زمنه ميدان بهذا الاسم . وكان الخياطون جماعة ذات رواج . وكان أغنى التجار من كانوا يبيعون الأقمشة الغالية والملابس المجهزة ، وكانوا مجموعين فى قيسارية . ثم صناعة الفراء وكانت أكثر رواجا فى أسبانيا منها فى إفريقية ، وذلك لقسوة المناخ فى أسبانيا . وكانت من الصناعات الكبيرة وكان الأغنياء يشترون العباءات الجلدية المبطنة بالفراء . أما غيرهم فيقتصرون فى الشتاء على عباءات محشوة بالقطن يشترونها من الفرائين . ثم صناعة الجلد وكانت عظيمة الانتشار أيضاً : ومن أهلها الدباغون الذين يتيمون مدابغهم على ضفاف الأنهار كما هى الحال اليوم فى فاس ، ومنهم السروجية وأنواع الحذائين لأحذية النساء وأغطية الأرجل والصنادل الخفيفة ذات النعال الفلينية . ومن الصناعات المتصلة بالملابس والزينة نستطيع أن نذكر كذلك المطرزين . ثم صناعة صياغة الحلى ؛ والأرجح أنها كانت منذ العصر الوسيط أيضاً قاصرة تقريباً على اليهود .

كذلك كانت توجد فى كل مدينة صناعات تتصل من قريب أو من بعيد بالأثاث والأدوات المنزلية ، وكانت توجد صناعة البناء ومن يعمل فيها من البنائين والنجارين والجصاصين وصناع بلاط الخزف المموه بالمينا والحفارين المتخصصين فى الحفر على الحجر والجص . أما أدوات المنزل فكان يصنعها الحدادون وصناع الحصر والصفارون وصناع الفخار ، وهم دائماً ممن ينزلون بصناعاتهم فى أحياء الأطراف .

ثم نقابات تضم أهل الحرف ذات المنفعة العامة . وكان للمدن قنوات للمياه . وكان العمال الذين يصنعون القنوات أو يصلحونها يؤلفون جماعة هامة ، ذلك فى المدن ؛ أما فى غيرها فإن السقائين هم الذين يمونون الناس بالمياه . فكانوا يبيعون للبيوت ماء النهر القريب أو النبع القائم فى المدينة أو قريباً منها . ثم إنه كان يعيش على نقل البضائع داخل المدن جماعة عديدة من الحمالين . ويورد ليون الإفريقى عنهم فى فاس أخباراً دقيقة فيقول إنه كان يجتمع فى ميدان يسمى الموقف نحو ثلثمائة منهم . وكان الأجر الذى يتقاضونه يودع فى خزانة عامة ، فإذا كان آخر الأسبوع وزع عليهم الأمين ما تجمع بالتساوى بينهم بعد خصم مبلغ يحول إلى خزانة خيرية للجماعة أسست لمعونة أرامل الحمالين وأيتامهم . ويشيد ليون بأمانة أفراد هذه الجماعة وكانوا عادة من الغرباء عن المدينة .

ثم تورد المصادر الوسيطة أخباراً عن مهن ليس من اليسير أن ندخلها فى عداد المهن الاقتصادية : مثل الأطباء والصيادلة والحلاقين والخاتنين والمدلكين فى الحمامات .

ثم الوكلاء وقد صب عليهم ابن عبدون غضبه لما يبدون من سوء النية فى الدفاع عن موكليهم . ثم الشهود الكاتبون وكانوا جماعة حقيقية يتخذون دكاكينهم فى جوار المساجد شأنهم اليوم . ثم معلمو المدارس وكانوا كثيرين، وكان لا بد من الإشراف عليهم دون انقطاع لقلة اهتمامهم بأداء واجبهم نحو من يدفع إليهم الأجر من التلاميذ ولانقطاعهم عن مدارسهم فى كل مناسبة كحضور الحفلات للشهادة أو لقراءة القرآن .

كذلك كانت المهن التى اولها أصحابها فى الشارع مما يخضع لإشراف المحتسب . وكانت هذه المهن من العناصر التى تطبع بعض ميادين المدينة بطابعها الصاحب الطريف، مثل المنجمين والمضحكين والحواة والمغنين وكذلك الشحاذين بطبيعة الحال .

ثم مهنة أخرى مربحة كانت قائمة فى المغرب والمشرق وكانت قائمة فى مراكش منذ عهد غير بعيد وهى مهنة النخاسة . وكانت قوة القرصنة وقطع البحر فى آخر العصر الوسيط مما جعلها مهنـــة كبيرة . وقد كان لكل مدينة فى القرن الثانى عشر وفى أيام خلافة قرطبة نفسها سوق خاصة للرقيق ، وكان التعامل فيها هاماً . وكانت مواردها منظمة على يد السماسرة الذين يجلبون الرقيق من أوربا المسيحية ومن إفريقية . وهنا كان المحتسب يجد مجالا كبيراً للرقابة . وقد خصص السقطى فصلا كاملا من كتابه لتجارة الرقيق هذه وللحيل المعقدة أحياناً التى كان يلجأ إليها النخاسون .

وأخيراً أعتذر عن إطالة هذا الحديث. ولعل ما ذكرته على رغم إيجازه الشديد وإملاله أحياناً يرسم لنا صورة ما عن النظم البلدية وعن نظام أهل الحرف وقيامه فى العصر الوسيط فى مدن أسبانيا الإسلامية والمغرب . وسأحاول فى محاضرة أخرى أن أبين العناصر التى يتألف منها نظام المدينة، وكيف أن النظم البلدية برغم قلتها كانت كفيلة فى الإسلام وفى المسيحية أيضاً بأن تتيح للمدن التجارية الكبيرة القيام بدور كبير فى حياة الأقاليم الاقتصادية وكيف جعلتها مفخرة ومصدر ثروة لإقليمها ، ثم كيف قامت هذه المدن بدور مجيد إلى أن نزلت بها الكوارث السياسية فطوحت بها فى طريق تدهور طويل بل تدهور تام .

المحاضرة السادسة

المدن والنظم المدنية فى المغرب الاسلامى فى العصر الوسيط

---

(٢)

نرى من الضرورى لتحديد الرسوم الأساسية فى المدن الإسلامية المغربية فى العصر الوسيط أن نبدأ ببعض الاعتبارات العامة ، التى تنطبق على المشرق الإسلامى كما تنطبق على المغرب على السواء . ولا حاجة بنا إلى الإسهاب فى بيان الدور الجليل الذى لعبته المدن فى تطور الجماعة الإنسانية . ففى التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك لا تقبل النقض . ومع ذلك فالتواريخ العربية لا تكاد تفيد فى رسم صورة صادقة للمدن الإسلامية ؛ كما أن أخبارها عن مظاهر الحياة الريفية قليلة دون استثناء أى عصر من العصور . وليس لدينا عن حياة أهل الريف فى المغرب الإسلامى خاصة إلا وثائق قليلة ، بل لا نكاد نتصور هيكل حالهم الشرعية فى حياتهم بعيداً عن كل مركز من مراكز الحضر . فالغموض كثيف حول كل ما يخص الحياة الاجتماعية خارج المدن . ولا تزال معرفتنا بنظام الإقطاع والمزارعة معرفة بعيدة عن الدقة . وإنه مما لا شك فيه أن الحضارة الإسلامية حضارة مدنية قبل كل شىء . ومن مظاهر ذلك أن الفاتحين منذ بدأوا توسعهم أحسوا بالحاجة إلى الاستقرار فى المدن القائمة أو إلى إنشاء مدن جديدة .

ولكن الاصطلاحات التى تطلق على المراكز المدنية فى اللغة العربية ليست كثيرة العدد . فلفظا بلد وبلدة اسمان غير دقيقين يقابلان لفظ localité بالفرنسية ولفظ poblavion بالأسبانية . أما الاصطلاح الذى ينطبق حقيقة على فكرة المدينة فهو « مدينة ». وكما اشتق لفظ الحضارة من لفظ المدينة باللاتينية civitas ، كذلك اشتق لفظ التمدن بمعنى الحضارة من لفظ المدينة مباشرة . ثم نجد ألفاظاً أخرى مثل حاضرة ومثل عاصمة ، وهى ألفاظ تطلق خاصة على العواصم بالمعنى الحديث للفظ . وتسمى المدينة الكبيرة بالعربية مصرا . وتدل التقاليد الإسلامية على أن هذا اللفظ كان يطلق فى عصر الفتوح الأولى على عواصم الأقاليم خاصة . وعلى هذا الإطلاق كانت الكوفة والبصرة تعد أمصارا ، فيقال « المصران » كما جاء فى البخارى . أما لفظ مدينة فأصله آرامى ، ويرجح أنه كان يطلق خاصة على المكان الذى يكون فيه القضاء ، وقد ذاع منذ ابتداء الإسلام حين حل محل

اسم يثرب للدلالة على مقر النبي بعد هجرته . فلفظ المدينة إذا رجعنا لهذا الأصل يجب أن يعرف على أنه مركز حضرى يحوى بيت العبادة ويجتمع فيه المؤمنون للصلاة الجامعة ويصدر فيه قاضي الجماعة أحكامه .

وقد لوحظ أن المدن التى أسسها المسلمون فى البلاد المفتوحة أسست بوجه عام فى مواضع بعيدة عن عواصم الحكم القديمة . وهذا ما كان من أمر البصرة والكوفة بالعراق . وكذلك أنشئت فى مصر وإفريقية عواصم الحكم بالفسطاط والقيروان بعيداً عن الاسكندرية وقرطاجنة . وتدل أسماء هذه المدن على أنها كانت فى الأصل ذات صفة حربية خالصة . فقد كانت قبل كل شىء معسكرات ونقط ارتكاز استراتيجية ، وحصوناً قوية قصد بها أن تحمى داخل أسوارها جنود الفتح إذا اضطروا إلى الانحياز إليها . أما فى المغرب فلم يكن الأمر كذلك دائماً ، فقد استقر ولاة العرب فى طنجة واشبيلية وقرطبة وهى مدن قديمة كانت من قبل عواصم الأقاليم الرومانية . ثم لم يؤسس العرب فى أسبانيا فى الفترة التى تلت الفتح إلا قليلا من المدن ، اللهم إلا إذا استثنينا حالات شاذة مثل مرسية وغرناطة التى أسست لتحل محل العواصم الإقليمية المجاورة وهى إلو والبيرة . والأمر على عكس ذلك فى مراكش ، فكلتا العاصمتين فاس فى الشمال ومراكش فى الجنوب ، من تأسيس المسلمين ، لأن طنجة وسبتة بموقعهما المتطرف لم تكونا صالحتين كعواصم للإدارة وإنما كان الداعى لكل هذه المدن المؤسسة داعياً حربياً أكثر منه اقتصادياً . ولكن الصفة المشتركة بينها وبين مدن المشرق هى أن اختيار مواضعها كان يقترن بشبه استعراض حقيقى على ما يروى المؤرخون . فمراسيم تشييد المدينة الأسلامية يذكر بالمراسيم التى كانت متبعة فى إقامة المعسكر الرومانى ، فلابد من اختيار ساعة مباركة بعد استشارة المنجمين ، ولابد من رسم التصميم على الأرض طبقا لمراسيم افتتاح محددة . ولقد اتبع القائد الفاطمى جوهر حين بدأ عام ٩٦٩ بناء مصر القاهرة مراسيم مستكملة فى افتتاح التأسيس . وسواء كانت المدينة من تأسيس المسلمين أو كانت قديمة ، فإن كل مركز مدنى ينزله المسلمون لايلبث أن يتخذ سماته المميزة له ويحتفظ بها . وذلك أن العناصر الأساسية المكونة للمدينة فى الحالين واحدة . فإذا عرب العرب مدينة قديمة لم يحرصوا على تغيير التصميم الأصلى أو تخطيط الشوارع أو الأبواب المؤدية لخارج المدينة ، وإنما أضافوا إليها عدداً من الأبنية يخلق للمدينة سمتها الإسلامية المطابقة لفكرة اجتماعية معينة ، لا تفريق فيها قط بين الدنيا والدين .

فأى مدينة إسلامية ينطبق عليها اسم المدينة يجب دائماً أن تكون مقراً لصاحب السلطان أو مقراً لمن يمثله . فإن كان صاحب السلطان هو الخليفة كانت المدينة عاصمته أو إحدى

عواصمه، وإن كان والى إقليم فالمدينة عاصمة إقليم، وإن كان قائداً فى إقليم الثغور فالمدينة قلعة وحصن استراتيجى . ويقيم ممثلو السلطان المركزى هؤلاء عادة فى جزء من المدينة يسهل الدفاع عن موقعه فى حالة الهجوم مثل القلعة، وتسمى فى المغرب « القصبة »، أو يقيمون فى قسم كامل من المدينة كحى مخصص لهم مثل القصر، وهو إذا أضيفت إليه ملحقاته العديدة يتخذ شكل مدينة كاملة . فالقصر الخليفى فى مدينة هامة آهلة مثل قرطبة يشغل قسما عظيما من حيز المدينة . ويوسف بن تاشفين المرابطى حين يؤسس عاصمته مراكش فى وسط القرن الحادى عشر فإنه يبنى أولا قصبة صغيرة لاستعماله الخاص ، ثم يبنى يعقوب المنصور الموحدى فى القرن الثانى عشر أسواراً جديدة حول قصره الذى بناه . أما فيما هو أقل من ذلك من المدن فإن الوالى يتخذ مقره عادة داخل القصبة ، فإذا كانت المدينة إنما نشأت حول حصن قديم — كما هى الحال فى كثير من مدن أسبانيا — اتخذت الإدارة المدنية مركزها فى هذا الحصن .

ولكن هذا القصر أو هذا المقر لا يعتبر قلب المدينة الحقيقى . أما المركز الحقيقى الذى يعد قلبها الخفاق ففى مكان آخر هو المسجد الجامع وما يلاصقه . والمسجد الجامع فى أى مدينة إسلامية لها شىء من الأهمية ذو منزلة تعلو على كل إطناب ، ذلك بأنه ليس بيت العبادة فحسب، ولكنه المركز الذى تدور حوله الحياة الدينية والعقلية والسياسية فى المدينة . وليس من المبالغة أن نقول إن مكانة المسجد الجامع فى المدينة الإسلامية شديدة الشبه بمكانة الآجورا أو الفورم فى المدينة اليونانية أو الرومانية . فكما أن السلطان الإسلامى يعتبر صاحب السلطتين الدينية والسياسية كذلك يكون للمسجد دور مزدوج يقابل ذلك . وقد كان المسجد فى المدن الإسلامية الأولى كالمدينة والبصرة والكوفة والفسطاط يقام فى وسط المدينة وبجانبه مقر الولاة ، لأن صاحب السلطان هو صاحب الصلاة وصاحب الخطبة . وإنما يكون اتصاله برعاياه من فوق كرسى الخطبة الذى هو المنبر . فمن فوقه تلقى الخطب الدينية ، ومن فوقه تعلن للناس الأخبار الرسمية كنتائج الغزو وإبلاغ البيعة والإعلامات الخاصة بجباية الأموال . وقد كان المسجد أيضاً مقر الإدارة الإسلامية الأولى . ونحن نعلم أنها لبساطتها كانت تحتمل ذلك . ثم إن المسجد ظل وقتاً طويلا المقر الوحيد لمجلس القاضى والمركز الوحيد للتعليم الدينى .

فالمسجد الجامع على العموم ، لا مقر الحاكم ، هو الذى يجب أن يتخذ مفتاحاً لكل دراسة طبغرافية أو تاريخية فى أى مدينة إسلامية . والواقع أنه من النادر أن يصف

جغرافى عربى مدينة دون أن يبدأ بجملة من الأخبار عن المسجد الجامع فيها، بحيث إنه يذهب بالنصيب الأكبر مما عندنا من الأوصاف . فالإدريسى الجغرافى عند ما يصف قرطبة يخص جامعها بالنصيب الأكبر من الوصف . وكتاب مثل « زهرة الآس » الذى يتناول فاس فى عصر بنى مرين يكاد يقتصر على وصف جامعيها : جامع القرويين وجامع الأندلس .

ثم ملاحظة أخرى لا بد منها وهى أن جوهر الحياة الاقتصادية فى المدينة إنما يتركز فى جوار المسجد الجامع . والأغلب أن يفصل شارع واحد بين بيت العبادة والأسواق التى تقام فيها تجارة المنتجات الصناعية وسلع الترف وغير ذلك من تجارة القيسارية. والأغلب أيضا أن لا تقام بيوت السكن ملاصقة للمسجد . أما حوله فيوجد عادة شارع صغير متعرج تتراص فيه دكاكين تجار الأقمشة والملابس والأحذية والكتاب وباعة الكتب والتوابل والروائح .

فأهم المعالم التى تميز مدن المغرب الإسلامى إذن هى نواة مدينة مركزية تشمل المسجد الجامع والقيسارية، ولا يشترط أن تشمل مقر الحكم . وهذا القول ينطبق على النموذج العام للمدن . ولكن بعض المدن قد تكون أعقد نموذجاً بفعل ظروف تاريخية خاصة . مثال ذلك فاس القديمة التى كبرت أولا عن طريق النماء ثم عن طريق إدماج مدينتين لكل منهما عناصره الأساسية الخاصة .

والاستثناء فى المغرب الإسلامى أن لا تحاط المدينة بالأسوار مثل مراكش إلى وسط القرن الثانى عشر. وإنما أحاطها بالأسوار ابن مؤسس المدينة وخليفته على بن يوسف بن تاشفين حين بدأ خطر الموحدين يتهدده . والعادة أن تفتح فى الأسوار أبواب عند الطرق التى تبدأ من المدينة وتصلها بغيرها . وتسمى الأبواب عادة باسم المدينة التى يؤدى إليها الطريق. وقد تنمو خارج الأبواب أرباض، ثم تزدهر وتنتهى بالاندماج فى المدينة، فيبنى سور جديد أوسع يضم الأرباض . وفى هذه الحالة لا يحدث تعديل فى أسماء الأماكن . فقد يهدم الباب بعد انعدام سبب وجوده ونماء المدينة ، وقد يهدم السور الذى فتحت فيه الأبواب أيضاً ، لكن الأسماء تبقى ولا تمحى . ويعتبر هذا الوضع بمثابة ظاهرة مطردة . وقد يحدث أن يكون فيما تنطوى عليه الأسوار أراض فضاء وحدائق وأراض مخصصة للاستغلال الصناعى كمصانع الفخار والآجر والزيت . ولا يزال ذلك حال قسم من مدينة فاس واقع داخل باب الفتوح، وهو قسم تتناوب فيه المنازل والحدائق الكبيرة وأفران الجير

ومصانع الفخار والاصطبلات وما يأوى إليها ليلا من الحيوانات بعد أن ترعى نهاراً خارج الأسوار فى فصل الربيع ، فيتجاور كل ذلك جواراً له طرافته .

والأغلب أن تقام المقابر خارج الأسوار والأغلب أيضا أن يكون ذلك بجوار أحد الأبواب . وفى خارج الأسوار أيضاً تقع الرحبة المسماة بالشريعة وهى مخصصة للاجتماعات الشعبية الكبيرة فهى المصلى أو بعبارة أخرى الرحبة المكشوفة التى يجتمع فيها المؤمنون للصلاة فى العراء أيام الأعياد الدينية . وفى قرب أحد الأبواب أيضاً تقع السوق الأسبوعية التى تسمى باسم اليوم الذى تعقد فيه. وفى خارج الأبواب أيضاً تقع المنيات للهوو هى عادة محاطة بالحدائق وتخصص فى خارج المدينة بطبيعة الحال أماكن للمجذمين ولكن هذا موضوع آخر.

من اليسير أن نتصور رسم المدينة على ضوء هذه الملاحظة العامة ، غير أن هذا الرسم بالنسبة للعصر الوسيط يكاد يكون تقريبياً . أما وسط المركز المدنى فيسمى عادة بالمدينة بالقياس إلى ما يحيط بها من الأرباض. ولفظ الربض بالعربية — ومنه بالأسبانية الربل — يطلق على أحياء الأطراف أصلا ، وعلى كل حى بعيد عن المركز تجوزاً . وتسمى أحياء الوسط إلى الآن بالحومة . وقد كان عدد الأحياء فى قرطبة أيام الخلفاء كبيراً نسبياً ، غير أن المدينة نفسها الواقعة داخل المحيط المدنى كانت تنقسم إلى قسمين كبيرين أو جانبين : جانب الشرق وجانب الغرب . ولكل منهما اسم يذكر إما بشخصية عظيمة وإما باسم مكان قديم. أما فاس فإن تقسيم مدينتها إلى ثمانية عشر حيا قديم من غير شك ، وهو على الأقل منطبق عليها أيام بنى مرين فى القرن الرابع عشر. وبين هذه الأحياء شوارع تحددها تحديداً دقيقاً ، وتنفذ فى كل حى خطوط من الحارات الضيقة تحف بها بيوت عالية تطل على الحارة ببروز طبقاتها العليا . فلا يتخلل الضوء الحارات إلا بمقدار ضئيل . وتسمى هذه الحارات أزقة ، ثم تتفرع منها حارات أضيق تسمى بالدروب ، وهكذا يكاد نصف مشارع المدينة ينتهى بسد . وكذلك كان أمر قرطبة . فكان فى بعض أسماء أحيائها وشوارعها أشكال طريفة . وكثيراً ما يحدث أن يجتاز شارع كبير المدينة من باب إلى باب آخر ، كما كانت الحال فى قرطبة حيث كان شارع فسيح يسمى بالشارع الأعظم يمر بين قصر الخلافة والمسجد الجامع إلى أن ينتهى عند قنطرة الوادى الكبير . أما الرحبات التى تلتقى عندها الطرق كما ندركها اليوم فلم تكن معروفة أو كانت على الأقل نادرة جداً . والأشيع خاصة أن توجد عند تقاطع الشوارع رحبات مستطيلة فى الغالب تسمى الواحدة منها لشكلها تربيعة . وكان يحف بها دكاكين جماعة معينة من الصناع يغلب أن تكون جماعة صناعة الملابس . وقد كان

لبعض ترابيع السوق اختصاص بنوع معين من السلع . فقد كانت إحداها مخصصة لبيع الملابس المصنوعة ، وكانت تسمى باسم رومانى وهو المرقطال وهو لفظ مشتق من اللاتينية مركاتلم . ولا تزال الكلمة مستعملة فى فاس لم يكد يلحقها تغيير فيقولون المرقطان . وقد تفتح فنادق التجار الغرباء أبوابها على بعض الترابيع ، مثل تربيعة النجارين وفندق النجارين بفاس .

ومن هذه الفنادق أنواع طريفة بمراكش ترجع إلى عصر بنى مرين . وقد كان لها فى اقتصاد المدينة دور هام جداً ، لأنها كانت تتخذ مخزناً وفندقاً ومصفقا للتجارة ومكانا لالتقاء التجار الأجانب . وكانت تسمى فى المغرب فنادق ، ومنها فى الأسبانية alhondiga وتسمى فى المشرق الخان . وقد كان بفاس فى القرن السادس عشر مائتا فندق . وكان أكبرها مكوناً من ثلاث طبقات وتبلغ غرفها مائة وعشرين غرفة . وللفندق نظام لصرف المياه وإجرائها فى قنوات . ولم يكن يوضع فى الغرف أثاث ، غير أن صاحب الفندق يقدم للنازلين الحصر والغطاء . وكان من الممكن الأكل بالفنادق بشرط أن يشترى النزيل الطعام فيدفعة إلى طباخين مخصوصين بالفندق . أما الدور الأرضى فيتخذ دكاكين ، ويغلب أن تكون دكاكين أقمشة .

وفى كثير من الأحيان نجد فى داخل مدن المغرب الكبيرة فى العصر الوسيط حياً مسيحياً وآخر يهودياً . وهم باعتبارهم أهل ذمة ممن يجب أن تحميهم السلطة المدنية شرعاً . وكانت هذه السلطة تأخذهم بالإقامة فى أحياء معينة تقع فى الأغلب فى جوار مقر السلطان قصراً كان أو قلعة . ولدينا دلائل كثيرة على وجود أحياء يهودية بأسبانيا الإسلامية مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة . وكذلك الأمر فى مراكش ، فقد كان الحى اليهودى فيها يسمى حى الملة ابتداء من القرن الخامس عشر . وقد اختلفوا فى اشتقاق لفظ الملة والأصح أنه فى الأصل اسم المكان الذى أفرد لليهود آخر أيام بنى مرين ، وهو « النبع المالح » . ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا الاسم اسماً مطلقاً ودل على حى اليهود (أو الغيتو) فى سائر مدن مراكش . ولكنه اسم غير معروف فى الجزائر ولا فى تونس ولا فى أسبانيا الإسلامية بطبيعة الحال . أما فيما يخص أحياء المسيحيين فى مدن مراكش فى العصر الوسيط فالأخبار الوحيدة الموثوق بها تخص مدينة مراكش ، وذلك أنها كانت زمناً طويلا ، أيام المرابطين خاصة ، مركز الأجناد المسيحية مثل جند رثرتر المشهور . فلما قام النضال مع المسيحية ابتداء من القرن الثانى عشر رأى بعض أمراء الموحدين أن يمنحوا امتيازات لمن كان فى عاصمتهم من أهل الذمة الكاثوليك ، مثل الحرية فى إقامة

الشعائر . وفى هذه الظروف أنشئت أسقفية مراكش ودامت إلى آخر القرن الرابع عشر وأنشئت الكنيسة التى تقع فى القصبة .

ولا بد لنا حين نرسم معالم المراكز المدنية فى العصر الوسيط أن نفرد مكاناً لحالات خاصة : هى حالات المدن الإدارية التى ينشئها الأمراء جملة واحدة ثم لا تعمر فى الغالب إلا قليلا . وقد كان لمدينتين من هذا النوع فى أسبانيا قبل القرن الحادى عشر شهرة عابرة : وهما مدينتان تقعان على أبواب قرطبة نفسها ، إحداهما مدينة الزهراء التى كانت مقراً أموياً والأخرى المدينة الزاهرة . الأولى غربى العاصمة والأخرى شرقيها فى إحدى منحنيات الوادى الكبير . وفى نفس الوقت أو قبله بقليل نرى فى إفريقية الشمالية ميلاد مراكز مدنية مصطنعة مثل رقادة التى أسسها الأغالبة فى ٨٧٦ جنوبى القيروان ، ومثل المنصورية التى أسسها الفاطميون فى ٩٤٧ . ولم يكن للمرابطين والموحدين مثل هذه المؤسسات الرسمية . أما رباط الفتح (وهى اليوم مدينة رباط) التى أسسها الموحدون فلم يكن الغرض منها إلا أن تكون أسوارها مركزا لحشد الجنود التى يهيئونها للجهاد فى أسبانيا . أما بنو مرين فإنهم أحيوا السنة الأولى ، فأسسوا غير فاس الجديدة وهى عاصمتهم الإدارية مدناً ثلاثاً أخرى : وهى البنية قرب الجزيرة الخضراء ، وأفراج قرب سبتة ، والمنصورة قرب تلمسان . ولكنها فى الواقع إنما كانت مجرد أسوار من اللبن اتخذت لتكون معسكراً مزودا ببعض المنشئات الثابتة الدائمة .

* * *

ومن أعظم الأشياء دلالة أن ندرس على ضوء ما قدمنا من الملاحظات التخطيط الحالى فى مدن إفريقية الشمالية وتخطيط المدن الأسبانية التى ظلت فى أيدى المسلمين زمناً طويلا . أما عن أسبانيا فإن ما طرأ من التخطيط — منذ أكثر من قرن قبل حدوث التغيرات الهامة فى أكثر المدن — على ضوء علم المدن الحديث يعد أشبه بقطاع تشريحى . وإلى هذه الدراسة الذى يسهل فيها الزلل اتجه بعض الباحثين فدرسوا قرطبة وغرناطة . وقد أدت بى الدراسة العميقة لأسماء أبواب المدن فى المغرب الإسلامى منذ بضع سنين إلى ملاحظة هامة وهى أن كثيراً من هذه الأسماء قد بقى فى أسبانيا إلى اليوم ، مثل باب فيزاجرا وباب سول فى طليطلة ، ومثل أبواب مدن شاطئ البحر الأبيض أو مدن إقليم الأندلس ، ثم أبواب اشبيلية مثل باب مكرينا وباب جريز وباب كرمونا ، فقد كانت معروفة بأسمائها قبل إخراج العرب . ثم إن إحدى ترابيع المرية الآهلة بالطبقة الدنيا فى العصر الإسلامى لا تزال إلى اليوم تسمى باب پشينا .

وكذلك يعتبر تخطيط الشوارع عظيم الدلالة . فإنه مما لا شك فيه أننا إذا صرفنا النظر عن الشوارع التى هى الشرايين الكبرى والتى شقت فى العصر الحديث فى كل المدن تقريباً ، وجدنا تخطيط الشوارع يرجع إلى العصر الإسلامى . ونكاد نلاحظ على الرسم دائماً عدداً من الطرق مجتمعا حول محور فى نظام يصل بين المحور والأبواب . ويتألف من هذه الطرق وما يلتقى بها من الطرق عرضاً عدد من القطاعات لا يشترط أن تكون مربعة ، وفيها نجد كثيراً من الحارات القديمة المنتهية بسد . ثم إن تضاريس الموقع المدنى ودرجة الانحناء فى مستواه تؤثر كثيراً فى تخطيط الشوارع وفى الأسباب المجهولة التى دعت إلى شقها عند إنشاء المدينة . فدينة مسطحة مثل قرطبة أو اشبيلية تختلف فى تصميمها اختلافاً جوهرياً عن تصميم مدينة منحدرة السطح مثل غرناطة أو فاس .

ومما يدعو إلى التفكير أيضاً أماكن الأبنية الهامة . فالأغلب أن تكون الكنيسة الكتدرائية حلت محل المسجد الجامع ، إما بمجرد تحويل البناء القديم للغرض الجديد بعد المباركة الدينية ، وإما بهدمه وبناء معبد جديد مكانه. أما الأبنية الحربية مثل القلعة والقصبة فإنها تبقى عادة فى مكانها ، وتظل فى الغالب أجزاء كاملة إسلامية قديمة منها قائمة كالأسوار والأبراج والبرج الأكبر . وهذه بطبيعة الحال ملاحظات واضحة لأول وهلة وظاهرة للعيان ، ومع ذلك فإنه يحسن أن نفصح عنها وأن نعرف قيمتها من الناحية التاريخية.

ولا يتسع نطاق هذه المحاضرة لتتبع مدن الأندلس ومراكش الرئيسية واستخلاص السمات المميزة لشكلها فى العصر الوسيط . فيجب الاقتصار على صورة موجزة وعلى تعليقات عاجلة بعض الشىء تكفى فى تذكيركم ببعض مناظرها المألوفة لكم من غير شك وتعينكم على مقارنة المدن الأندلسية بمجموعات المدن الأخرى الواقعة وراء جبل طارق ، وهى مدن أكثر احتفاظاً بشكلها القديم . ولا أطيل أيضاً فى ذكر قرطبة ولا فى ذكر الـ « مزكيتا »[1] رمز فخرها الذى لا يطاوله شىء ، والذى هو أحد درر الفن الإسلامى أو الفن الأسبانى الموروسكى إن أردتم التعبير الاصطلاحى . وقرطبة فى رأيى ، رغم فخامتها فى ثوبها الحديث هى المدينة الأسبانية التى احتفظت بأكبر نصيب من عطر الإسلام الأسبانى . ولم أر أشد أخذاً ولا أعظم شحذاً للخيال من منظر الكتدرائية وشكلها الممتلىء حين ننظر إليها من وراء قنطرة الوادى الكبير . ولا تزال بعض الميادين الصغيرة تكن شحنة كبيرة من البيئة التاريخية إن جاز هذا التعبير، حتى أنها ترجع بنا إذا وقفنا أمامها ألف سنة إلى الوراء. إلى العصر الذى كانت عاصمة أسبانيا الأموية فيه أكثر مدن أوربا سكاناً وأعظمها لطافة

(١) أى مسجد قرطبة .

وأجلها ثقافة . وقد كانت صورة قرطبة أيام الخلافة موضوع دراسة متقنة قام بها منذ بضع سنين الأستاذ م . رفاييل كستيجون ، فلم يترك مشكلة من المشاكل التى أثيرت حول آثار العصر الأموى أو العصور التى تلته إلى إخراج العرب حتى جلى عنها الظلام .

أما عن اشبيلية فلم يكد يبلغ البحث فيها المقارنة بين الوقائع التاريخية والأثرية والطبغرافية والوقائع الخاصة بأسماء معالمها . وما أعجب مصير اشبيلية الإسلامية مع ذلك. لقد كانت أولا مقر ولاة أسبانيا، ثم مدينة من مدن الأقاليم أيام الأمويين ، ثم عاصمة لامعة لبنى عباد فى القرن الحادى عشر، ثم أحب مقام للموحدين فى أسبانيا . أما تطور اشبيلية من الناحية المدنية قبل عودة المسيحيين إليها وبعدها فأمر معروف نسبياً بفضل بعض الوثائق، مثل تاريخ ألونسو مرجادو وهو تاريخ تيم . وقد كان علو شأن المدينة فى العصر الإسلامى بمثابة استعداد لعلوها فيما بعد علواً لا يضارع حين أصبح ميناؤها النهرى منذ ١٥٠٣ وإلى بعد ذلك بقرنين محط تجارة أسبانيا كلها مع مستعمرات أمريكا. وبديهى أن يؤدى هذا العلو إلى تغير مدنى بقدره ، وأن يكون بذلك سبباً يجعل البحث عن شكل اشبيلية فى العصر الإسلامى — بطريق النظر فى تخطيطها الحالى — بحثاً عقيماً بعض الشىء . وأنا أعتقد برغم ظواهر الأشياء أن المدينة كانت أقل احتفاظاً بشكلها القديم من قرطبة . فإذا جاء اليوم — ونتمناه قريباً — الذى نحاول فيه أن نطبق على اشبيلية طريقة الطبغرافية التاريخية ، استطعنا أن نجنى أكبر الفائدة من تاريخ ألونسو مرجادو وهو مصدر غنى بالأخبار ومن تاريخ آخر عربى يرجع إلى عصر الموحدين ألفه ابن صاحب الصلاة ، ففيه أخبار عظيمة القدر عما قام به فى أشبيلية ابن عبد المؤمن وخليفته من الاصلاحات المدنية . وقد نشر المرحوم الأب ملخور انتونا عام ١٩٣٠ جزءاً من هذا الكتاب ، ومنه نعلم مقدار ما بذل الخليفة أبو يعقوب يوسف من العناية بتجميل عاصمته المختارة . فهو الذى أمر ببناء سورها على نفقته ، وهو السور المحاذى للوادى الكبير . ثم إنه الذى بنى أول جسر على النهر ليصل اشبيلية بربضها ، تريانا . ولا شك أنه كان جسراً من المراكب. وفى نفس الوقت أعنى حوالى ١١٧٣ بنى قصر الموحدين المسمى بالبحيرة وغرس من حوله حدائق واسعة من أشجار الفاكهة ، واتخذ القنوات لرى هذه الحدائق ، وبنى كذلك صهريجاً لتموين المدينة بالماء ، ولم يكن أهلها إلى ذلك الوقت يشربون إلا من النهر . ولكن أهم إصلاحات هذا الملك هو بناء مسجد جامع جديد بدل القديم الذى يرجع إلى القرن التاسع أعنى إلى أيام الأمير الأموى عبد الرحمن الأوسط ، وهو الجامع الذى عرف باسم القاضى الذى قام على بنائه وهو عمر بن العباس . وكان المسجد الأول (ونقش تأسيسه محفوظ

إلى اليوم) أصبح ضيقاً فى عهد المرابطين كما يشهد بذلك ابن عبدون صاحب كتاب الحسبة فى اشبيلية ، فلم يقرروا توسيعه كما حدث فى قرطبة إذ وسعوا مسجدها ثلاث مرات متوالية ، ولكن الخليفة الموحدى أبا يعقوب فضل أن يشيد مسجداً جديداً — ومنه جزء باق فى كتدرائية أشبيلية — وجعل له منارة فخمة تسمى جيرالدا . أما المسجد الجامع القديم الذى هو اليوم كنيسة سلفادور فإنه أصبح بعد بناء المسجد الجديد مسجداً موضعياً غير جامع . وقد خصه الأستاذ ل . توريز بالباس منذ شهور ببحث ضخم .

وكان بناء المسجد الجامع الجديد، على الرغم من أنه لا يبعد عن القديم إلا بنحو كيلو متر فى خط مستقيم ، من شأنه أن يحدث بعض الاضطراب فى اقتصاد المدينة . فيحدثنا المؤرخ ابن عبدون أن الخليفة الموحدى أمر بنزع ملكية البيوت المجاورة للمعبد الجديد وهدمها ، وخصص الفضاء الجديد لبناء سوق جديدة جعل له أربعة مداخل ونقل إليه دكاكين باعة الأقمشة وصناديق باعة التوابل .

فإذا انتقلنا الآن إلى الأندلس الشرقية أو إلى ساحل البحر الأبيض، وجدنا هنا وهناك مراكز مدنية لايزال فى تصميمها أثر من تاريخها الإسلامى . ولعل التغيير لم يشملها لأنها مدن صغيرة أو قرى كبيرة . ولعل إقليم بلنسية هو أكثر الأقاليم فى أسبانيا تعربا بمعنى الكلمة . لأن الإسلام أثر فيه تأثيراً عميقاً فأسماء الأماكن عربية فى الغالب. ومن القرى ما كان يحمل أسماء مؤسسيها مثل منزل عطا ، ومنزل نصر ، فاحتفظت بهذه الأسماء وسميت اليوم مسلاته ومسانصر . ثم إن مدينة المرية الواقعة على شاطئ البحر الأبيض تعتبر من المراكز المدنية الإسلامية التى لم ينلها الزمن إلا بأقل حظ من التغيير . فقد كانت قبل إخراج العرب مدينة عالية الاسم، لإنها كانت أنشط الموانى الأندلسية ومجمع الأسطول الحربى ومركزاً للتجارة طالما تحدث المؤرخون المعاصرون عن ثرائه . وكان لصناعاته الكمالية المترفة صيت كبير مثل أقمشته الحريرية الثقيلة المنسوجة بالذهب ومثل سجاده المشغول . وكان بها نحو ثمانمائة حرفة فى نسج الحرير . أما ميناؤها فكان يشحن منه جزء عظيم من منتجات الأندلس التى تصدر إلى الخارج، وفيه كانت تفرغ كل التوابل والمنتجات النادرة المستوردة عن طريق الاسكندرية. ثم إن المدينة شاركت غرناطة مصيرها فى القرون الأخيرة من حركة التحرير . وزاد عدد سكانها مثل مدينة مالقة افت اللاجئين إليها ممن طردوا شيئاً فشيئاً من مدن أسبانيا الجنوبية .

ثم مدينة أخيرة لا تزال تحتفظ بسمات عدة من سماتها فى العصر الإسلامى وأقصد غرناطة بطبيعة الحال . وقد دخل التعديل على تخطيطها فى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر. ولكن ذلك زاد من حماسة الباحثين لدراستها . أما الأوصاف العربية فإنها كما قلت آنفاً غامضة غير كافية . وأهمها فى نظرى وصف المشرق ابن فضل الله العمرى وهو وصف لم يتم الباحثون استغلاله . أما الحقائق الأثرية الماثلة فى المدينة الحالية نفسها فإنها على أهميتها لا تكفى فى جلاء كثير من الغموض القائم حول مشاكل خطط المدينة وتوقيع مواقعها . ولكنها مع ذلك المدينة التى يسهل رسم تخطيطها فى العهد النصرى على أساس تخطيطها الحالى رسماً أقرب ما يكون للحقيقة .

فحمراء غرناطة وفاس الجديدة التى بناها بنو مرين كلتاهما تمثل النموذج الكامل لقصور الخلفاء الدائمة. ولكنهما أسوارها الحصينة ذات الأبراج والأبواب الضخام. وفى داخل كل منهما قصر وثكنات واصطبلات وأحياء شعبية ينزل بها مرتزقة الأمير وخدمه . ولكن وجود هذه المدن الرسمية ذات الغرض الخاص لم يؤثر فى شىء فى اقتصاد المدينة التى تلاصقها ، لأن المدن الرسمية إنما تعد عنصراً تابعاً وإن استكمل أهم المقومات اللازمة لأى مركز مدنى .

* * *

فإذا انتقلنا إلى مراكش لم نجد عناء فى الوقوع على بيئة وسيطة بمعنى الكلمة، إذا اجتزنا شوارع مدنها الكبرى لاحظنا كأن ظاهرة تبلور قد ثبتت شكل مدنها، كما كان منذ خمسة أو ستة قرون فى كثير من الأحوال . أما من الناحية الطبغرافية التاريخية فإن مراكش أقل من أسبانيا حظاً من الأخبار وإن كانت دراسة المدن فى مراكش أيسر . فقد نستطيع بفضل أرشيف الأوقاف أن نتتبع بعض الأحياء وما لحقها من تطور غير شكلها بالقياس إلى الأحياء المجاورة تتبعاً علمياً عظيم الحظ من الصدق .

والمراكشيون اليوم لا يزالون يقسمون مدنهم إلى عدد معين من النماذج . فمنها ما هو حضرى ،وهو يمتاز برقة أهله فى عاداتهم ولطافة أذواقهم وتفننهم فى طبخهم.وفى مثل هذه المدن بقيت التقاليد الأندلسية أقوى ما تكون وظل تراث الحضارة الأندلسية مصوناً . مثال ذلك فاس ورباط وسالى وتطوان . أما المراكز المدنية الأخرى فتعتبر مدنا متكلفة بعض الشىء آهلة بسكان من أصل ريفى لم يتقنوا التحضر ،مثل وجدةووزغنا فهى مدن ينزلها بدو السهول ،ومثل طنجة فأغلب سكانها من أصل جبلى،وقسم أخير يشمل مدينتى

الشريف وهما مكناس فى الشمال ومراكش فى الجنوب . وهما من المدن الواسعة أو هما بتعبير أفصح مدن غير مركزة حول مركز معين ، فنجد فيهما خططاً كثافة السكان فيها شديدة بجوار فضاء أو قصور قديمة مهجورة أو متداعية أو بجوار مقابر ورحبات، وكل هذا مما يطبع هذه المدن بطابع التجول ، وهذا نموذج يمثل المراكز الحضرية البدوية أصلا وهو مختلف فى هيئته عن النموذج الحضرى وأقل تقشفاً ، فالنموذج الحضرى مجتمع المنازل غاص فى الغالب تضيق به أسواره . أما فيما يخص مراكش على الأقل فإن طابع التجول كان أقل ظهوراً منه اليوم . فإن هذه المدينة التى كانت عاصمة المرابطين والموحدين كانت فى العصر الوسيط أسبانية الصبغة إلى أقصى حد ، ثم اتخذت شيئاً فشيئاً فى ظل الأسر الشريفية هيئة المدينة الصحراوية والعاصمة البربرية فنمت بدون انقطاع دائرتها المطاطة وبيوتها المبنية بالآجر وشوارعها المتربة وأسواقها الصاخبة. أما فاس فإن تاريخها المدنى قد تأثر أعمق الأثر بالظروف التى أحاطت بإنشائها وبخواص الموقع الذى أقيمت عليه ، فهو من أكثر المواقع امتيازاً ويكاد يكون اختياره من وحى العبقرية . وذلك أن نهراً دائماً تجرى مياهه من عيون قريبة جداً يتفرع عند المدينة إلى شبكة معقدة من الفروع فى قنوات تشمل المدينة من طرف إلى طرف بمقدار ثابت من الماء فيمون أكثر المنازل تواضعاً بحاجته من الماء. وقد أعلنت منذ بضع سنين رأياً كان جريئاً فى الظاهر حول تاريخ تأسيس فاس وحول تجاور مدينتين مختلفتين أصلا فى طبيعتهما على نفس هذا الموقع الذى حبته الطبيعة بالمميزات. وهذا الرأى قد قبله اليوم كل مؤرخى مراكش دون نقاش . ومن فضيلته أنه يفسر تفسيراً مقبولا تجاور مدينتين قديمتين لكل منهما عناصره الخاصة المقومة : من مسجد وحصن وسوق وأسوار محصنة ، فإنا نجد سورين توأمين قابلى الاتساع يفصل بينهما مجرى ماء جارف ثم سرعان ما أحس السكان بضيقهما ، ولا شك أن يوسف بن تاشفين المرابطى استجاب لهذا الإحساس حين أمر فى سنة ١٠٦٩ بهدم أجزاء السور الفاصلة المجاورة لضفة النهر . لكن آثار الازدواج المدنى فى أيام المدينة الأولى لاتزال ملحوظة فى تخطيط المدينة وأرضها . فكل منهما تتصل بضفة من ضفتى النهر وتتسمى باسم ساكنيها الأولين : عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين .

* * *

وأريد الآن فى ختام هذه السلسلة الطويلة من الملاحظات عن مدن المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط أن أعرض لحظات لمدينة إفريقية توفرت لدينا أخبارها لحسن الحظ منذ اكتشاف وصف مفصل لها يرجع إلى القرن الرابع عشر . وأقصد مدينة سبتة،

وهى مدينة أسبانية فى تقاليدها وفى مواهبها . وكثيراً ما كان تاريخها الإسلامى يصلها بالشاطئ الأندلسى القريب أكثر مما يصلها بأرض مراكش التى ترتكز عليها . وتاريخها منذ غزو إفريقية إنما هو فترات طويلة من الرواج الاقتصادى والتوازن الاجتماعى كانت تدوم إلى أن تقطعها فجأة كوارث السياسة كما هى الحال فى غيرها من مدن المغرب . وتاريخها منذ أقدم العصور من أكثر التواريخ تنوعاً ، أما فى العصر الوسيط فإنها تنقلت من الأمويين إلى بنى حمود ، ثم كانت عاصمة دويلة صغيرة ثم مقر أسرة حاكمة مستنيرة هى أسرة بنى عزفى إلى أن انتقلت ابتداء من أول القرن الخامس عشر إلى أيدى البرتغاليين ثم الأسبانيين.وكان استقرار المسيحيين فيها بجيوشهم منذ هذا الوقت المبكر واضطرار المدينة زمنا طويلا إلى اتخاذ موقف دفاعى لرد المحاولات لاستعادتها مما أدى بطبيعة الحال إلى تغيير شكلها الإسلامى تغييراً تاماً . فليس اليوم أشبه بالمدن الأندلسية من سبتة الأسبانية فى العصر الحاضر . فهى ممتلئة بالحياة والحركة ذات طابع أوربى خاص لا يكاد يوجد فيها بقية من آثار ترجع إلى عهدها الإسلامى الوسيط.أما موقعها فإنه جميل مشرف على البحر ومبانيها تتعلق على سفح المرتفع فتشرف إشرافاً تاماً على مضيق جبل طارق وعلى شاطئ أسبانيا القريب.وهذا وضع يكاد يعزلها عزلا تاماً عما وراءها مباشرة.والواقع أن سبتة تقوم على شبه جزيرة ممتدة من الغرب إلى الشرق فى أحد طرفيها جبل المينا المسمى اليوم جبل آخو وارتفاعه يقرب من مائتى متر . ولهذا كانت المدينة دائماً مكونة من حيين متميزين : حى منبسط عند البرزخ وحى فى الناحية الأخرى من شبه الجزيرة متعلق بسفح المرتفع . أما من ناحية البر فإن البرزخ يتسع ويعلو حتى يبلغ هضبة واسعة تتقسمها بعض النهيرات : وتنتهى الهضبة بجرف يقع البحر عند أقدامه ، وهى هضبة تستند إلى طرف كتلة الأنجرا . ومن فوقها يطل جبل موسى بجسمه الضخم فيرى من أى مكان فى مضيق جبل طارق . وعلى هذا كانت سبتة لا تستطيع الاتصال بما وراءها إلا عن طريق الساحل والا من طريق وعر فى الغرب وفى الجنوب على السواء . فالمدينة كالجزيرة من الناحية الفعلية وطبيعتها الجزرية بارزة فى كل تاريخها على مر القرون .

وأعود إلى الوصف الخاص بسبتة فى القرن الخامس عشر ومؤلفه محمد الانصارى وهو من أهل البلد . وهو يورد أسماء المقابر الهامة بالمدينة وقائمة بمن دفن فيها من الأعيان ، ثم يتناول الوصف المساجد وهى كثيرة جداً إذا أضفنا إليها مساجد الخطط الصغيرة . أما أخباره الكثيرة عن المسجد الجامع فعظيمة الدقة . للجامع اثنان وعشرون رواقاً . وحائط المحراب مزين على خلاف العادة فى المغرب بزجاج ملون برسوم من العربسك مشدود

بقضبان الرصاص ، وللمنبر اثنتا عشرة درجة ، وبجواره مقصورة ، وللمسجد رحبتان فى كل منهما حوضان . وبقربه مدرستان أسس كبراهما الأمير المرينى أبو الحسن . ولدينا عن هذه المدرسة المرينية فى سبتة أخبار جمعها ابن مرزوق فى تاريخ ألفه عن الأمير أبى الحسن . ولم يبق من هذه المدرسة اليوم شىء فى مكانه . ولكننا نستطيع أن نعرف جمال أخشابها المخروطة مما حفظ منها فى متحف قادس . ومما يذكره المؤلف أنه كانت بها « أشكال منحوتة وحيطان مغطاة بالجص وبلاط متعدد الألوان من الرخام أو الفسيفساء وخشب متقن الخرط » . وبقرب هاتين المدرستين مكتبات مخصصة للطلبة يقول المؤلف أنه لم يكن علم من العلوم إلا كان له فيها شىء من الكتب .

ويقتصر قسم خاص من وصف سبتة على وصف الخلوات الصوفية المنبثة فى أرجائها لأن الواصف ألف فى عصر كثر فيه أتباع الحياة الزاهدة الصوفية . وكان من المناظر المألوفة أن ترى فى مدينة المضيق مظاهر التعبد مقترنة بالاستعداد الحربى قصد الجهاد . وهذه الخلوات المزدوجة فى أغراضها كانت رباطاً ، ويسمى بناؤها الواسع رابطة وكان رباط سبتة قائماً على ساحل البحر فى وسط أسوار وكان عبارة عن قبة مرتفعة قائمة على اثنى عشر عموداً وحول القبة شرفة يتعاقب الحراسة فيها الحراس بالليل والنهار . وكان بالمدينة وما يحيط بها ثمانية عشر منظرة للحراسة ، وكان فى قمة الجبل عند حافة الجزيرة برج عظيم يرجع إلى عهد المرابطين وكان منظرة لمراقبة حركات السفن فى المضيق ، وكان هذا البرج مشرفا على مساحة صغيرة ذات أهمية حربية ولها مسجد خاص .

وفى أثناء وصف النظام الدفاعى فى المدينة عرض المؤلف لأخبار كثيرة دقيقة عظيمة القيمة ، منها أن المدينة كلها كانت محاطة بأسوار متصلة فيها نحو خمسين باباً أو مخرجاً صغيراً أو مستوراً . أما باب السور الأساسى فكان عليه برجان مبنيان من الحجر بارزان عن سمت الحائط . أما قسما المدينة أى قسم البرزخ وقسم الميناء فكانا منفصلين بينهما خندق عميق عليه جسران .

وفى القرن الرابع عشر فيما يروى المؤلف كان كل مكان فضاء حول سبتة يتخصص — إذا كان صالحاً — لتعليم الرمى بالقسى . وكان كل السكان مهما تكن مكانتهم الاجتماعية كثيراً ما يشتبكون فى مباريات للرماية . وكانت بعض الأسر تتوارث صناعة أسلحة الرمى . ومما يزيد فى قيمة وصف سبتة للأنصارى أخباره التى يوردها عن الحياة التجارية والاقتصادية

فى المدينة وعن مينائها فى العصر الوسيط . فبعد أن أفل نجمها أيام المرابطين عاد إليها رواجها البحرى فى آخر القرن الثانى عشر وزاد اتساعاً عما كان عليه فى القرن العاشر والقرن الحادى عشر ، لأن الخليفة الموحدى يعقوب المنصور منح بعض الجمهوريات التجارية مثل بيزة والبندقية حق التجارة فى موانى دولته . وبعد ذلك بقليل كانت السفن القشتالية تغشى سبتة ، وكذلك السفن المحملة ببضائع تجار البحر من أهل مرسيليا ، وقد كان لهم فندق خاص بالمدينة منذ ١٢٣٦ فكانت سبتة ممراً للتجارة بين مراكش وأوربا لاستيراد الأقمشة والخيوط والقطن وخشب الصباغة والتوابل ولإصدار الجلد والملح والشمع والعسل والفاكهة المجففة والخيول أيضاً .

ولتسهيل التبادل كان بسبتة كما فى سائر الموانى المفتوحة للتجارة المسيحية جمرك كامل تقدم اليه البضائع عند إنزالها إلى البر . ونستطيع بفضل الأخبار التى جمعها ماس لاترى فى كتابه عن العلاقات التجارية بين إفريقية الشمالية والأمم المسيحية فى العصر الوسيط ، أن نعرف ببعض الدقة كيف كان يدار الجمرك فى الموانى التجارية الهامة . كان برأسه وال يختاره السلطان ، وقد يختاره أحياناً من أمراء الأسرة الحاكمة ، وإلى جانبه يوجد كتبة حاسبون وتراجمة . وكان لكل أمة مسيحية ذات مصلحة قيم خاص بالجمرك . وكان أهم غرض من الجمرك استيفاء حق الخزانة على البضائع المستوردة أو المعروضة . وبه أيضاً كانت تعقد المبايعات الهامة بين المسيحيين والمسلمين وتعقد الصفقات العامة بالمزايدة وبغيرها ، أما حق الخزانة فكان يبلغ عادة ١٠ ٪ ماعدا الاستثناءات المنصوص عليها فى المعاهدات التجارية . ويضاف إلى حق الخزانة حقوق إضافية مثل حق الإرساء وحقوق الوزن والكيل والخزن . وقد يحدث كما رأينا فى المكوس الحكومية والبلدية أن يؤجر السلطان هذه الحقوق إلى متقبل عام . ولا مانع أن يكون المتقبل مسيحياً فى بعض الأحيان .

وينص الأنصارى على وجود ديوان بسبتة فى آخر القرن الرابع عشر . فيقول إن أحد دواوين الخزانة كان مقراً لمكاتب الجمرك ، وقبالته مخازن التجار المسيحيين ، وفى فضاء أمامهما كانت تعقد السوق الكبيرة . وكان للمسيحيين فى سبتة سبعة مخازن : أربعة متراصة وثلاثة متناثرة . وفى مكان آخر كانت مراقبة ربط البضائع المعدة للتصدير ومنح رخص الحمل . ثم مكتب آخر من مكاتب الخزانة كانت تضرب فيه العملة ولكنه كان بعيداً عن الميناء لأنه كان يقع فى قاب القلعة .

وكان بسبتة فيما يروى نفس المؤرخ أربعة وسبعون ومائة سوق منها ١٤٢ فى المدينة نفسها و٣٢ فى الأرباض وكان بعض هذه الأسواق يقع فى جوار المسجد الجامع كما هى الحال

فى المدن الأخرى مثل سوق العطارين وقيسارية الأقمشة . ومن الأسواق الهامة سوق النحاسين لأن سبتة كانت مشهورة بأشغال النحاس . ثم سوق القديم . أما الصناع الذين ينسجون الأقمشة الحريرية ويخوصونها فكانوا يتجمعون فى تربيعات (ميادين) مستطيلة وكانت مصانعهم فى بيوت ذات ثلاث طبقات . أما المخازن فإنها تستعمل كفنادق للضيافة ولا يقل عددها عن ٣٦٠، وكان أهمها يسمى الفندق الكبير وكان مخصصاً لخزن الحبوب، وكان من ورائه تل لاصق به وله بابان أحدهما على الشارع المنخفض والآخر على الشارع المرتفع، وكانت الأبواب تتسع لدخول الجمال بسهولة محملة بعدلين من أحمال الحبوب .

وكانت سبتة تصنع مقادير كبيرة من الأقمشة الخام ، فلم تكن تستغنى عن عدد عظيم من مصانع التبييض . وكانت هذه المصانع ملاصقة للسور ولكل منها حمى فى السور تحفظ فيه ليلا ما يجهز من الأقمشة . ومن مصانع التبييض ما كان خاصاً بالصوف المغزول .

وصناعة الصيد كانت كذلك عظيمة الرواج فى سبتة . ولدينا شواهد على ذلك بالنسبة لعصور مختلفة. فيحدثنا الإدريسى أنه لم يكن أخصب من هذا الشاطئ فى السمك من حيث الكثرة والتجارة . وأصنافه تبلغ مائة صنف مختلفة . وأهم ما يصاد هناك سمك التونة وهو عظيم التكاثر فى هذه الناحية . ويحدثنا البكرى عن كثرة السمك فى شاطئ المضيق . ويحدثنا مؤلف وصف سبتة فى القرن الرابع عشر ن شيء من الاسهاب عن صناعة الصيد هذه فيقول: إنه كان بما يسمى بحرى سبتة المحيطين بجانبى البرزخ ما لايقل عن تسع جرارات من الشباك . اما المصائد فكانت منبثة قرب الشاطئ من حد كابونتى إلى مرسى موسى .

ويذكر الإدريسى صيد المرجان فى سبتة، فيقول إنه يصاد من شاطئ هذه المدينة مرجان أجمل مما يصاد فى سائر البحار . كذلك كان بالمدينة سوق لخرط المرجان وتجهيزه وتدويره وثقبه ونظمه فى الأسلاك . وكان المرجان من أهم العروض التى تصدر . ويصدر أغلبه إلى غانة وبلاد السودان الأخرى لكثرة استعماله هناك . ولكن هذه الصناعة تدهورت فى القرن الرابع عشر لأن مؤلف وصف سبتة لا يعرض لها بذكر .

وصاحب وصف سبتة يذيل وصفه بوصف قرية كبيرة واقعة غربى شبه الجزيرة هى قرية بليونش وكانت قرية عظيمة الازدهار فى عصره لكثرة مياهها الجارية وبساتينها .

وقد كان لها شهرة كبيرة عند المسلمين فامتدحوا حسن موقعها ومزاياها الطبيعية قصائد شعر كثيرة يحرص الجغرافيون على الاستشهاد بها . وتشهد الأنقاض القائمة إلى الآن بوجود مركز مدنى قديم قليل الاتساع .والراجح أن الأمويين حين استولوا على سبتة فى القرن العاشر أنشأوا فيها منازل وبساتين . وعلى أى حال فالموقع نفسه مشهور إذا كان ما افترضه ڤيكتور بيرار صحيحاً من أن هذا المكان هو موضع كهف كاليپسو . ثم إن للمكان منظراً رائعاً على المضيق والشاطئ الأندلسى يوحى بمثل ما يوحى به منظر سبتة من أن الحضارة الأندلسية قد وجدت فى هذه الأرض الإفريقية القريبة من أوربا مجالا فسيحاً للظهور . وكذلك كانت سبتة فى كل عصورها التاريخية كما كانت سائر مدن مراكش الشمالية عظيمة الحظ من الصبغة الأسبانية. وكان أثرها فى البلاد مما ساعد على إيجاد شخصية خاصة لمراكش فى المغرب الأقصى من العالم الإسلامى، وهى شخصية عظيمة الابتكار وافرة الجاذبية .

وهذه الملاحظة تؤيد النتيجة التى أدتنى اليها منذ سنين طويلة دراساتى المقارنة لتاريخ المغرب الإسلامى الاجتماعى . هذه النتيجة هى أن أرض الأندلس كانت قبل التحرير وبعده بيئة صالحة لحضارة مدنية مركبة سامية لم تزل إلى فجر العصور الحديثة تؤثر فى السواحل الإسلامية فى غربى البحر الأبيض إلى تونس ودرنة فى لوبيا وإلى الإسكندرية بمصر أيضاً تأثيراً اقتصادياً وثقافياً لا تزال آثاره قائمة إلى اليوم فى بعض الأحيان . وأعتقد أن من شرفونى باستماعهم إلى وأولونى صبرهم يرتضون هذه النتيجة .

كشاف للأعلام فقط

(ا)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

PUBLICATIONS DE LA FACULTÉ DES LETTRES
DE L'UNIVERSITÉ FAROUK Ier D'ALEXANDRIE

CONFÉRENCES

SUR

L'ESPAGNE MUSULMANE

prononcées à la Faculté des Lettres en 1947 et 1948

PAR

Le Professeur E. LÉVI-PROVENÇAL
Professeur de langue et civilisation arabes à la Sorbonne,
Directeur de l'Institut des études islamiques de l'Université de Paris.

ET

accompagnées d'une traduction en arabe établie par

M. A. CHEIRA
Professeur-adjoint, Faculté des Lettres, Université Farouk

Revue par

A. H. EL-ABBADI BEY
Doyen de la Faculté des Lettres, Université Farouk Ier

IMPRIMERIE NATIONALE, LE CAIRE
1951